بغداد

(البداية والنهاية)

رواية

دار دريم بن للطباعة والنشر

العنوان: مدينة العبور – الحي السادس، فيلا ٨ ،مدخل ١

الهاتف: ١٠٠٣٢٨٨٥٩٦(٠٠٢٠)

إلكتروني بريد: dream.pen92@gmail.com

بغداد البداية والنهاية

عبد الفتاح صابر

الطبعة الأولى، القاهرة ٢٠٢٠م

غلاف: عمار جمال العبد

تدقيق لغوي: هبة ممدوح

تنسيق وإخراج داخلي: أحمد مسعد

رقم الإيداع: ١٦٠٢٦/ ٢٠٢٠

I.S.B.N \ 978-977-6794-32-0

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطي من الدار.

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

بغداد

- البداية والنهاية -

(رواية)

عبد الفتاح صابر

إهداء

إلى أميرة حياتي –والدتي- التي لولاها ما كنت أنا.

وإلى روح والدي الذي لم أره ولكني رأيته في نفسي،

إلى كل مَن شجعني وآمنَ بموهبتي.

وإهداء خاص للكاتب الكبير/ محمد عصمت، أول من شجعني في مجال الكتابة.

وإلى الكاتبة الكبيرة/ روان أيمن.

وإلى ابن خالتي وأخي الكبير إسلام محمد الذي كان وما زال أحد أسباب نجاحي.

وإلى أصدقائي: أستاذ أحمد يسري، وإبراهيم عادل وحسين.

وإلى ذلك الرجل الذي كان بمحل والدي، زوج خالتي الأستاذ محمد شحاته.

وإلى جميع طلابي وإخوتي الصغار.

لِسَائِلِ الدَّمْعِ عَنْ بَغْدَادَ أَخْبَار
فَمَا وُقُوفُكَ وَالأَحْبَابُ قَدْ سَارُوا

يَا زَائِرِينَ إِلَى الزَّوْرَاءِ لاَ تَفِدُوا
فَمَا بِذَاكَ الحِمَى وَالدَّارُ دَيَّارُ

تَاجُ الخَلِيفَةِ وَالرُّبْعُ الَّذِي شَرُفَتْ
بِهِ المَعَالِمُ قَدْ عَفَاهُ إِقْفَارُ

عَلاَ الصَّلِيبُ عَلَى أَعْلَى مَنَابِرِهَا
وَقَامَ بِالأَمْرِ مَنْ يَحْوِيهِ زُنَّارُ

من رثاء "تقيُّ الدين إسماعيل التنوخي" لبغداد!

بغداد

١٠ فبراير ١٢٥٨م

٩ صفر ٦٥٦ هـ

هرجٌ ومرجٌ ودمارٌ..

قواتٌ لا تعرف جنسها أبشرٍ كانت أم وحوش كاسحة؟ تجتاح شوارع مدينة المنصور، تستبيح العرض وتهتك التاريخ.

أشلاء تتطاير هنا وهناك، أكثر من مليون نفس قد أُزهقت روحها، كتب ملقاة هنا وهناك، ومكتبات محترقة، ولون النهر من حبر الكتب قد أسودَّ.

كان سقوط مدينة واحدة كفيلًا بالقضاء على حضارة قد أضاءت الدنيا كلها.

كلُّ شيءٍ في المشهد بشعًا وبحقٍ، ولكنك ستسمع صوتَ الحجر يبكي، وصوت من كان له عقلٌ كذلك يبكي وكأن أحدهم يجلس ويبكي على أطلال أحد البيوت المنكوبة؛ فدنوت منه، فإذا هو رجلٌ يلبس السواد، ينظر ويقول:

ضاعت بغداد ثلاث..

يوم تنافس عليها الأمناء..

ويوم أن صارت تحت رحمة الأترك..

ويوم أن خانها الوزراء..

ولكنها.. في ذاك اليوم ضاعت.. ولن تعود.

ضاع ملكي، وضاع صنع يدي؛ فاحفظ عني أحداثها وسجلها في سجل التاريخ، ولتكن البداية من هنا، من ملتقى النهرين، من حيث العدم إلى الوجود، فاحفظ عني فإني لن أعود..

وأما أنا...

أنا باني تلك الأطلال؛ أفلا ترى قبتي التي تقف شامخة تأبى الدمار!

تلك القبة الخضراء التي تعرف اسمي، فأنا المنصور أبو جعفر -ثاني خلفاء بني العباس- أهيب خلفاء بني العباس. كنتُ شديدَ الحزمِ وطدتُ أركان دولتي

ووضعت أسسها.. وباني تلك المدينة التي كانت يومًا عاصمة الدنيا..

كانت رمزًا للمجدِ، ولكن أيضًا كانت رمزًا للدم.. رمزًا للألم والخيانة والصراع.. فهيا بنا إلى رمز ملكنا.. هيا نسرد قصَّتَها، قصة (مدينة المنصور).

الفصل الأول

ما قبل البداية..

ما قبل البداية..

عادةً يا ولدي، ما تبدأ قصةُ المكان بالقرب من بانيه، ولكن في مدينتي كانت البداية مختلفةً تمامًا، حتى في التخطيط كانت مختلفةً أيضًا.

البداية كانت في طريق عودتي من الحج في أواخر عامِ (١٣٦هـ) حين كنتُ عائدًا من بلاد الحجاز، حين أرسل إليَّ بن أخي عيسى بن موسي رسالة يعزيني فيها بوفاة أخي أمير المؤمنين -أبو العباس- وكانت المفاجأة هي أنه قد عهد إليَّ بولاية العهد، أي أنني أصبحت من اليوم إمامَ المؤمنين وأميرهم. نعم، أصبحت ثاني خلفاء بني العباس، هنا جاء لي رجالُنا معزيين ومبايعين إلا واحدًا فقط كنتُ أنتظر مبايعته، ذلك المتكبر دائمًا علي ويخاطبني كأنه يشبه قامتي ومنزلتي، إنه رجلُ الدولة القوي، إنه أبو مسلم الخراساني، قد كان متعجرفًا وبحقٍ داهية من الفرس قد اكتسب مكانته؛ حيث إنه هزمَ جيوشَ الأمويين، وطارد آخر حلفائهم حتى أخرجهم من بلاد الشام.

قد تكبَّر حتى ظنَّ أنه أكبر من الخليفة والخلافة؛ فظنَّ أنه صانع الخلافة والملك لنا، ولكنه في الحقيقة التي كان يتجاهلها أننا نحن -بني العباس- مَن صنعناه، ولولانا ما كان هو ولا قومه.

قد شعر بأني قد أكون ولي العهد القادم، ولكنه لم يحفظ ذلك، تجرأ عليَّ في عهد أخي، لم يكن يومًا يحترم مقامي، وبذلك قد يكون كتب نهايته بيده.

الخراساني تأخر في بيعتي، وحين أرسل إلي لم يبايعني، وإنما أرسل معزيًّا لي، حينها أدركت أنه لم يستقم لي ملكٌ هو قائمٌ فيه، ولكن يا ولدي ولأن المصائب لا تأتي أبدًا فرادى؛ فقد جاءت إليّ الضربة الأولى ليست من أبي مسلم لكنها جاءت إلي من أقرب الناس، إنه والي الشام عمي عبد الله بن علي، فخلعني وأعلن العصيان وتمرَّد بمن معه من جندٍ، لم أجد أمامي سوى ذلك المتكبر لأضربه به، إنه أبو مسلم، بعثت برسالة ألاطفه وأطالبه بالقضاء على فتنة عمي في بلاد الشام.

وكما توقعت.. بالفعل ضربت الأفعى بالثعبان؛ فالتهمت الأفعى الثعبان وقضت عليه. نعم، قضى أبو مسلم الخراساني على فتنه عمي، وكانت هذه فرصتي التي لم أفوتها، كنت أجهز للقضاء عليه أيضًا، كان متكبرًا بأنصاره وهو في خراسان، أما الآن فهو بعيدٌ عنها قريبٌ مني، فاحتلتُ عليه فطالبته بالمكوث في بلاد الشام، فرفض وأصرَّ على عنادِه. ففي تلك اللحظة قررتُ القضاء عليه، أرسلت إليه من يستدعيه لي، ولكن كان سليطَ اللسانِ فتجاوز في حقِّنا، فهددته وألَّبت عليه نائبه في خراسان، هنا أدرك أبو مسلم أنَّ نهايته قد حانت، فسلَّم نفسه لي وكنت قد أعددتُّ الخطةَ لقتله، فحين جاءني وجدني مبتسمًا هادئًا ومُستلطِفًا إياه حتى جردته من سلاحه، وعددت له جرائمه حين ضاق بكلامي كأنما اختنق به، فقال لي: «يا أمير المؤمنين، ليس يقال لمثلي هذا، ولا يعدد لي ذنوبي بعد بلائي وما قد كان»!

وهنا استشاط غضبي فهتفت فيه: «يا ابن الخبيثة! لو كانت أمك لفعلت ما أنت صانعه لدولتنا».

وعندها أطلقت الإشارة بالتصفيق بيدي، فانطلق من وراء الستار الحراس يفتكون به، هكذا تخلصت منه

ومن شرّه. ولكن أتباعه لم أكن أأمن خراسان ولا أهلها؛ فأخذت أتنقل من المدائن للأنبار، فوجدتها متشيعة لعلي بن أبي طالب وولده، فانتقلت إلى الكوفة لأجدها أكثر تشيعًا والأخطر، إنها قريبةٌ من (خراسان) معقل حزب أبي مسلم الخراساني.

.....

من هنا جاءت الفكرة؛ بأنْ أبني تلك المدينة، فخرجت أمشط العراق كله حتى أجد مكانَ الإقامة لي ولملكي، فوقع اختياري على عطية الله، وهو مكان تأتيه ماء دجلة فتحوله جنان خضراء، وتأتيه تجارة الشرق، ومن الغرب تأتيه تجارة الشام، ومن الجنوب طريقة مكة، وهكذا كان المكان بالفعل كما يقال عليه عطية الله (بغ داد) كما كان يطلق عليها الفرس قديمًان وأسميتها أنا (دار السلام) وسماها من جاء بعدي بمدينة المنصور لاسمي.

.....

كانت فريدة في تخطيطها، فبنيتها ليست كالكوفة، أو البصرة، أو صنعاء اليمن، حتى كان بناؤها دائريًّا، فحين أنَّ مدن الخلافة إما مستطيلة أو مربعة أو بيضاوية

الشكل، لكن مدينة المنصور قد جعلتها فريدة في كل شيء وكأني أُمهد لها الطريق لكي تكون عاصمة الدنيا، فجعلتها دائرية الشكل محاطة بأبواب عملاقة؛ جعلتها بابًا لاتجاه خرسان من عمل الفراعنة، وبابًا للبصرة من عمل نبي الله سليمان، وبابًا للكوفة، وبابًا للشام. ثم أقمت قصري وقبتي الخضراء التي ما زالت شامخة أبيَّة حتى وقتك هذا، وثم المسجد الجامع ومن بعدها أقمتُ قصورَ الأمراءِ والوزراءِ، ثم مساكن العامة وأهل السوق، وبقيت على هذا الموضع حتى جاء رسول بيزنطية ألينا؛ فأردت أن أتباهى ببغداد، فأمرت أحد وزرائي أن يصحبه في جولة بالمدينة، وحين عاد به قلت له:

- ما رأيك بمدينتي؟
- ما أحسنها من بناء ونظام، ولكن أرى أنك قد قربت أهل السوقة منك!
- ما في ذلك!
- مولاي، إنهم أهل فتنة وجهل، وقد تحدث فتنة فتجدهم في قاعتك تلك.
- سننظر في ذلك الأمر..

وما إن خرج الرسول حتى اجتمعتُ بوزرائي وعرضت عليهم ما قاله الرسول، فوافقوا الرسول فيما قاله، فأمرت بنقل السوق وأهل السوق بعيدًا عن القصر، وتم نقله إلى حدود بغداد.

وكان هذا يا ولدي أول تعديل قمت به في بغداد بعد بنائها، فإنَّ القدر لم يمهلني كي أفعل المزيد.

وهكذا بدأت بغداد لتقود العالم كله، وهكذا اكتمل البناء بعد أربع سنوات من العمل منذ عام (١٤٥هـ) وحتى عام (١٤٩هـ)، ولكني لم أكن أعلم أنَّ هذا البناء سيبدأ أولى حلقات الدماء فيه سريعًا على يد أبناء أبنائي الأمناء.

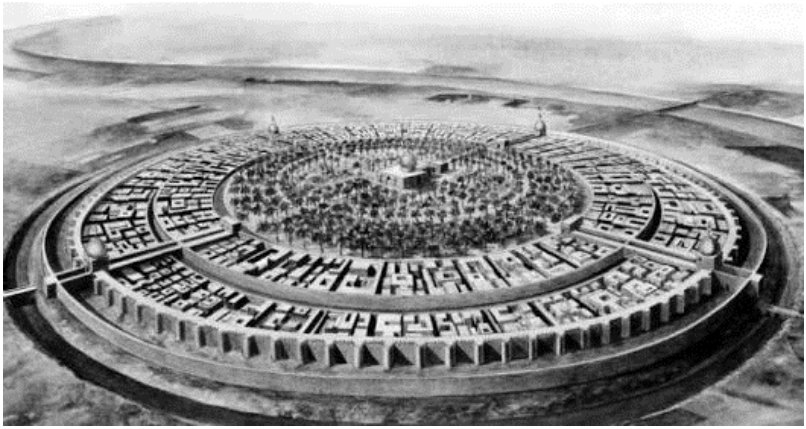

"بغداد كما بناها المنصور.."

الفصل الثاني

صراع الأمناء..

يا بني، دعنا نكمل لك سرد الحكاية.

نعم، أنا باني هذه الأطلال وبقايا المدينة التي لم أحكم منها بلاد المسلمين إلا تسع سنوات فقط حتى نهاية حكمي (١٥٨هـ).

قد بدأت من بعدي تزدهر تلك المدينة أكثر في عهد ولدي (محمد المهدي) وأحفادي (الهادي) و(هارون الرشيد)، قد نافست بلاد الروم والعجم حتى أصبحت عاصمة الدنيا بأسرها، حتى جاءت اللحظة التي لم أكن أتمناها؛ مدينة محاصرة ومحطمة، وجيوش تنتفض من خارجها إلى داخلها! لا لم تكن جيوش العدو لا، بل كانت أولى حلقات الدماء فيها، كانت من بني العباس أنفسهم، من أحفاد أبنائي ابني هارون الرشيد (الأمين) و(المأمون).

لكن دعنا نبدأ تلك الحكاية منذ عهد الرشيد، فقط أغمِض عينيك وسأرسم لك الصورة كاملة.

بغداد..

قصر الخلافة..

١٧٥هـ

هارون الرشيد يدخل إلى مضجعه بعد يومٍ طويلٍ في إيوان الحكم ومجالسه التي لا تنتهي، وما إن دخل حتى تبسَّم في وجه زوجته -زبيدة بنت جعفر- فقال:

- مرحي بأم الأمين.

فتبتسم له مداعبة وتقول بدلالٍ:

- توحشتك؟
- نعم، كوحشة الابن لأمه يا سيدة الأميرات.
- أنت سيدي، ومولاي، وزوجي، وأهلي، وعشيرتي.
- أنتِ لي الحبيبة، والأهل، والجوار.. قد اشتقت إليكِ ولكن أين الأمين إني لا أراه!
- أتقصد ولي عهدك يا مولاي؟

هارون هاتفًا باستنكار:

- ولي عهدي؟! إن له أخًا أسنّ منه هو المأمون يا زبيدة!

- اتُفضِّل ابن الفارسية على ولدي بن هارون بن المهدي وبن زبيدة بنت جعفر بن أبو جعفر المنصور؟!

هارون ضاحكًا:

- يا لمكر النساء! ولكنه الأسن يا زبيدة.

- أعلم ذلك، ولكنه ليس عربيًا خالصًا، هو ولدي من دم الخلافة أبًا وأمًا، أم تريد أن يقول الناس قد جعل الخلافة للفرس؟

- زبيدة كفاك، سأنظر في الأمر وسنفعل ما يرضيكِ يا أم الأمير.

.....

وفي اليوم التالي يا ولدي يخرج الأمر بولاية العهد لمحمد الأمين صاحب الخمس سنوات، لا تستغرب إنه سحر النساء وكيدهن، وبالأخص حفيدتي تلك –زبيدة- ولكن يا ولدي لم يكن هارون ليغفل حق أولاده. وفي عام (١٨٢هـ) في مكة يقوم بإعلان البيعة لولده المأمون بولاية العهد، ولكن خلف أخيه الأمين، وأن يكون له

المشرق كله بعد وفاة الرشيد ليكون في حماية أخواله الفرس من أخيه إذا بطش به.

وهكذا مهد الرشيد دون قصده يا ولدي لأول بركة دماء ودمار في بغداد.

.....

نعم هذا الاتفاق سيحل اللعنة على بغداد، وفور وفاة الرشيد مباشرة.

دعنا نكمل حكايتنا.. قد توفي الرشيد عام (١٩٣هـ) وهو في طريقه للقضاء على أحد الخارجين يدعى (رافع الليثي بخرسان)، وكان المأمون وقتها هنا في خرسان بمرو.

.....

ما قبل الوفاة..

.....

الرشيد يحتضر في خيمته وقد أمر بقادة جنده وأخذ البيعة منهم للمأمون، وإنه إذا مات فليكونوا عونَ

المأمون في خرسان، ولكن يا ولدي الشيطان قد لعب برأس الأمين؛ فأمر حاجب الرشيد (الفضل بن الربيع) بأن يعود بالجيش كله ليبدأ منذ تلك اللحظة وقد أغراه الأمين بالوزارة.

صراع الدم..

صراع الحكم..

صراع الأمناء..

صراع الوزراء..

يا ولدي، عادة هناك قاعدة الملك: «إذا فسد جلساء الملك فسد أمر الحكم»!

وهكذا بدأ صراع أحفادي بصراع جلساء كليهما، فقد جعل الأمين هذا الشيطان وزيرًا له، وهو الفضل بن الربيع الذي ظل يبثّ سمومَه في رأس الأمين حتى أفسد كل شيءٍ، وأما المأمون أيضًا فقد اختار شيطانًا آخر أكثر مكرًا ألا وهو الفضل بن سهل.

لو نظرت إلى بغداد وقصر الأمين لتوقعت النهاية الحتمية؛ فالأمين خليعٌ يشرب ويسكر تاركًا شؤون حكمه لشيطانه الخبيث الفصل بن الربيع، بينما الأمين على حالته هذه يدخل عليه الفضل فيقول له:

- السلام على أمير المؤمنين محمد الأمين.
- وعليك السلام يا وزيرنا ومدير أمر مملكتنا! ما الذي جاء بك؟
- أتترك أخاك المأمون مستقلًا بالشرق؟!
- نعم، إنه عهد أبي إليه والميثاق! إلامَ ترمي إليه يا فضل؟
- إن أباك أمير المؤمنين –هارون- قد توفاه الله، وأنت الذي تحكم الآن، فماذا تنتظر بغداد؟ أتنتظر بأن ينادي بنفسه خليفة في خرسان وهو وسط أخواله أخوت أمه الفارسية؟!
- إن أخي على العهد باقٍ، فما زال يرسل إلي الخراج ويراسلني بالبريد، لا يا فضل لم أكن لأقطع العهد والميثاق!
- يا مولاي، حاشاك أن تفعل هذا، ولكنه الحذر فاختبر ولاءه، فأرسل في طلبه أو اطلب منه أن يتنازل لك عن بعض مدن خرسان.

الأمين بعد تفكير قصير:

- نعم والله، نِعْمَ الرأي.. أرسل إليه بكتاب تبلغه أنني أحتاج إلى قربه ومشورته، وأبلغه أن أنتظر أن يوافيني حيث أنا في بغداد؛ فلا بد من أخبار ولائه.
- أمر مولاي مطاع.

.....

هكذا بدأت القصة من نهايتها بفعل هذا الشيطان الخبيث، ولكن لتكتمل الصورة دعنا ننظر إلى الشرق من ناحية الجنوب، حيث خرسان ولاية المأمون التي أيضًا كانت جحرًا لأفعى أخرى تدعى (الفضل بن سهل) وزير المأمون، ولكن المأمون لم يكن كالأمين، كان المأمون متفقهًا عادلًا في حكمه حسن السيرة، ولكنه مثل الأمين قد بلع سمَّ وزيره أيضًا.

.....

ذات يومٍ.. استدعى المأمون الفضل بن سهل ليخبره بأمر رسالة أخيه، إنه يطلب منه أن يأتي إليه في بغداد، وقرأ عليه الرسالة وما إن انتهى من قراءتها حتى قال:

- ماذا ترى يا بن سهل، إنه يخاطبني بالأخوة والرحم؟
- كلام في ظاهره الأخوة، وفي بطانه الغدر والخيانة فلا تفعل! إنك إن تذهب إليه فإنك تقدم رأسك إليه، فلا تفعل يا مولاي.
- هو كذلك فعلًا؛ فالحمد لله الذي وافق ما في نفسي ما بنفسك، ولكن نرد عليه -إن شاء الله- بخير كتاب نعتذر فيه عن الحضور فاذهب وأرسل إليه بذلك.

.....

هكذا بدا الأمر وكأنه الرماد الذي يخفي النار.

.....

هكذا قد نجح الوزراء في إفساد الأمناء يا ولدي وقد بدأت أنا أول حلقات الدم على وشك الانفجار، ففي بغداد كان الوضع يزاد سوءًا بفعل ذلك الوزير -ابن الربيع- الذي كان يحرض الخليفة الأمين، ويقول له بعدما جاء رفض المأمون لطلب الأمين:

- ألم أقل لك يا مولاي أن أخاك لن يأتي فلما تنتظر؟
- يا ابن الربيع لا تشعل نار الحرب!
- يا مولاي، لا أريد ذلك إنما أريد الحفاظ على ملكك وأن يكون في ولدك أنت إلى أن يشاء الله!
- أتقصد أن أخلع أخي وأولي ابني مكانه ولاية العهد؟
- لا، بل تجعله هو يخلع نفسه، فإن رفض يا مولاي فقد أعذرت في حربك معه.

الأمين وقد لمعت عيناه إعجابًا بكلام وزيره:

- أرسل إليه بعض رجالنا من بني العباس إلى المأمون ليخلع نفسه ويحضر لي هنا، وإني قد استوحشني بعده.

.....

بدأ يا ولدي الأمين بالغدر فلم يكن جزاء الغدر إلا الدم..

.....

خرسان..

مدينه مرو..

قصر المأمون..

الوفد الذي بعثه الأمين يقف أمام المأمون ومعهم رسالة الأمين إلى أخيه ليخلع نفسه، وما إن انتهى الوفد من قراءة الرسالة حتى هبَّ الفضل بن سهل واقفًا يقول:

- لا ليس للأمين بيعه في أعناقنا بعد اليوم، قد أظهر الخيانة.

ولكن المأمون نظر إليه فصمت، ولكن أحد رجال المأمون قد هبَّ قائلًا:

- إنما البيعة أخذت علينا على أن تكون أنت أيها المأمون بعده، ولكن ما دام قد طلب عكس ذلك فلا بيعه له في أعناقنا، والسلام عليك يا مولاي أمير المؤمنين المأمون.

وهنا المأمون قد استشاط غضبًا وقال:

- يحرمني حقي، لا والله لا يكون هذا أبدًا، ولكن نمهله ونكتب إليه ردنا بالحسنى، فإن أبى فالسيف بيننا وبينه يا بن سهل! اكتب له على لساننا ما يلي: «أما بعد.. فقد بلغني كتاب أمير المؤمنين، فإن أمير المؤمنين لم يطلبني بحق له في فيحق عليَّ طاعته، فلا تبعثني يا بن أبي على مخالفتك، وأنا حريص على طاعتك ولا قطيعتك، وأنا على صلتك قائم وإلا فالحق يفصل بيننا والسلام».

.....

يا ليت الأمين قد سمع أخاه، ولكنه قد تشرَّب بسم وزير الفضل بن الربيع، وقام حين بلغه كتاب أخيه بخلعه من ولاية العهد وكتب بولاية العهد لولده.

.....

حينها أدركت يا ولدي أن لحظة الانفجار قد حدثت، فالأمين يبعث لأخيه الجيوش للقبض عليه أو لقتله لكي لا تكون له الخلافة أبدًا، والمأمون هو الآخر يفعل ذلك يجهز جيوشه لقتال أخيه.

.....

تتصارع الحوادث وكأنما قد باتت اللعنة وشيكة على بغداد، فجيوش المأمون تهزم جيوش الأمين.

جيوش المأمون تجتاح العراق، تحاصر العراق يا لوقع الصاعقة! بغداد تحت حصار الإخوة، تحيط بها اللعنات من كل جانب، جيوش المأمون على أبوابها تحاصر وما داخلها، فقد كان الأمين لاحول له ولا قوة، وأما ثعبانه الآخر الفضل بن الربيع قد اختفى.

....

جيوش المأمون تجتاح بغداد، تدمر ملكي في مهده.. يا ويح أيام بغداد، حتى قال أحدهم يواسي بغداد وكأنه يواسيني:

ماذا أصابك يا بغداد بالعين... ألم تكوني زمانًا قرة العين!

حتي جاءت النهاية بالقبض على الأمين، ولكن المأمون قد أمر بالإبقاء على حياته، إلا أن وزيره كأنه الشيطان يزين له قتل أخيه، فأرسل الفضل بن سهل إلى قادة الجند بقتله وقد علم المأمون بذلك.

.....

هكذا انتهت بغداد سريعًا، خاصة أن المأمون قد فضل عليها مرو عاصمة خرسان، إلا أنه قد عاد إلى بغداد كابنٍ عاقٍ يراضي أمه، فها هو المأمون يعيد إلى بغداد زهوها البائد حتى أصبحت في عهده كما كانت في عهد أبيه عاصمة الدين والدنيا، عاصمة العلم والعلماء.

.....

وهكذا قد انتهت هنا أولى حكايات بغداد، نعم ولكن حكايتها لم تكن تنتهي، سأخبرك بها حيث لدغات الأفاعي التي تنهش حكمي وحكم أحفادي، ولنبدأ معها فصلًا جديدًا من فصول مأساة بغداد العظمي، فصلًا يسمى (قتلة الخلفاء).. ولكن قبل ختام حكايتنا تلك الآن دعني أخبرك شيئًا؛ وهو أن المأمون قد كافأ وزيره الفضل بن سهل على ما فعله.

فأمر بقتله!

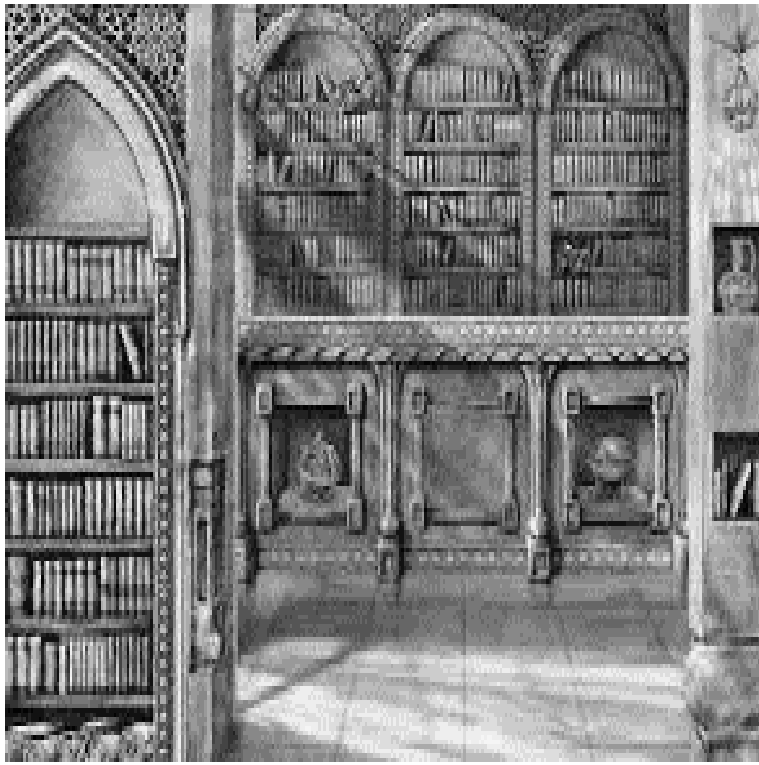

"بيت الحكمة الذي بناه هارون الرشيد وأكمله ابنه عبد الله المأمون."

الفصل الثالث

قتلة الخلفاء

الآن.. دعنا نكمل؛ أعلم أنك متشوقٌ لتعرفَ البقية الباقية، ولكن يا ولدي إن البقية لم تكتمل!

البقية تسير بمدينتي نحو الهاوية ونحو الانكسار، قد بدأت حين سقطت في يد الشيعة لتتحول إلى مدينة أشباح، ولكن يا ولدي لم تكن هذه البداية بل كان هناك ما قبل البداية أو ما قبل الهاوية.

.....

ما قبل الهاوية

تبدأ يا ولدي عندما حضرت الوفاة الخليفة المأمون، وكان بطرسوس حيث كان يجاهد الروم فأستدعى أخاه المعتصم وقال له يوصيه:

«يا ابن أبي، إني وليتك أمر المسلمين؛ فخذ الناس بالقوة واستكثر من الجند و للخرمية فاغزهم بقوة وحزم وجلد، واحشد لهم الأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجال، فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك، واعمل في ذلك عمل مقدم النية فيه راجيًا ثواب الله عليه»، ثم مات المأمون.

كان حفيدي المأمون قد أفلح في اختيار أخيه؛ لشجاعته وبسالته وصرامته، فقد تولى الخلافة وفتنه بابك الخرمي الذي عاث الفساد في الخلافة، فكاد أن يسقط هيبة الخلافة لولا المعتصم الذي قضي على فتنته.

ثم جاء الدور على المتغطرف الآخر، الإمبراطور البيزنطي الذي هاجم حدود الدولة فوصلت الأخبار لوزير المعتصم الذي قال للمعتصم:

- مولاي هناك مال يسر أمير المؤمنين.

المعتصم وقد كان متكأ على كرسي حكمه متزينًا بالسواد شعار دولتنا، ولو رأيت يا ولدي المعتصم لأدركت أن ملك الروم قد ارتكب حماقة سيندم عليها؛ فالمعتصم المحارب الذي عوض نقص تعليمه بتعلم فنون الحرب العسكرية والقتال لن يفوتها لملك الروم؛ فاعتدل جالسًا وقال:

- خيبك الله قد أفزعتني.. تكلم.
- قد هاجم ملك الروم والعجم (تيوفيل) مدينة زنطرة، فدكها دكًا وجعل أعزة أهلها أذلة وقد بلغني أنه سبي من أهلها النساء، وأن إحداهن قد استصرخت تقول: وامعتصماه.

فاعتدل المعتصم واقفًا وهو يقول:

- لبيك أختاه.. والله لأكسرنَّ أنفه.

ثم نادى وقد تملكه الغضب صائحًا:

- يا أيتاخ (أحد قادة المعتصم من الترك)
- أمر مولاي..
- أيُّ بلاد الروم أعظم؟
- مدينة يقال لها عمورية، فهي أعظم عندهم من القسطنطينية نفسها، ففيها وُلدَ ملكهم وهي عظيمة التحصين.
- وأيم الله لأجعلنَّها خاوية على عروشها ولأكسرنَّ بها أنفه فلا يقوى على مهاجمة بلادنا، فلتستعد الجند وليكتبوا على الدروع (عمورية).

بالفعل يا ولدي قد أبر المعتصم بقسمه فهاجم عمورية وساوها بالأرض حتى أرسل إليه ملك الروم يعتذر.

كان حفيدي قويًا حاسمًا، ولكنه قد ارتكب الحماقة التي أذهبت الخلافة إلى حيث اللاعودة حين استكثر من الأتراك، وأبعد الفرس، وجعل من الترك القادة والوزراء، وأسقط العرب بني جلدته من ديوان الجند،

وترك خلافته وخلافة جداده، خلافتي جعلها لعبة في أيدهم، وإن كان قويًا حاسمًا فإن من بعده لم يكن مثلًا فتحولت بغداد إلى ساحة لقتل أحفادي.

ويتحول قصر الخلافة إلى قصر الدم واللعنات، ولتبدأ حلقة جديدة من حلقات ما قبل الهاوية.. ولتبدأ قصة القصر الملعون.

ستبدأ يا ولدي الآن اللعنات التي لن تنتهي أبدًا، فأغمض عينيك وتأمل بعقلك فقط.

ستبدأ أولى حلقات القصر بعيدًا عن مدينتي، ستبدأ في مدينة جديدة بناها المعتصم لتكون وكرًا لجنده الأتراك، أو ربما مقبرة لحكمه، إنها مدينة الحسن الجديدة سر من رأى.

(سامراء) لتكون عاصمته الثانية، يحتمي بها من عامة بغداد أو ليحمي عامة بغداد من بطش أتراكه!

البداية..

سامراء..

أغسطس ٨٤٧

الكل يجتمع حول الواثق بالله بن المعتصم الذي كان يصارع الموت، يرجون منه أن يولي من بعده ابنه محمد الذي كان ما زال صغيرًا، ولكن الواثق كان رده الحاسم: «لا أتولى أمركم حيًا وميتًا».

بموت الواثق دون أن يعين خليفه له ليترك الخلافة على صفيحٍ من اللهيب المشتعل.

يطير خبر وفاة الواثق بالله إلى وزيره (محمد بن عبد الملك الزيات) الذي اجتمع مع كبار رجال الدولة، وقاضي القضاة (ابن أبي داوود) ومعهم بالطبع يا ولدي زعيم الأفعى كبير الأتراك (وصيف التركي) أحد زعماء الأتراك.

وصيف التركي:

- رحم الله مولانا أمير المؤمنين الواثق بالله، لو كان اختار قبل وفاته لكان أراحنا من هذا، فماذا تقولون يا قوم؟

الوزير:

- وهل فيها من قول! إنه بالطبع ابن مولانا محمد بن الواثق كما جرت العادة.

أحد القادة الترك يتدخل مقاطعًا الوزير:

- محمد من؟ أصلح الله الوزير!

فاضي القضاة يتدخل:

- ماذا دهاك يا هذا؟ نعم محمد ابن مولانا كما جرت العادة حتى وإن كان صغيرًا أو طفلًا في المهد.

وصيف التركي:

- أي هراء هذا؟ لا والله لن يكون هذا، لن يتولى أمر هذه الأمة طفلٌ ولو كان ابن الرشيد ذاته! وإن الأحق بهذا الأمر كله ذلك السجين في سجنه، أخيه فأخرجوه وعينوه.

الوزير:

- أتقصد المتوكل أخو مولانا الواثق -رحمه الله- لا لن بكون هذا أبدًا!

هنا يتدخل وصيف التركي شاهرًا سيفه ويقول بحزم:

- اسمع يا هذا ولتسمعوا جميعًا؛ إن الجند لم يحلفوا بالولاء لطفل صغيرٍ حتي فنى بني العباس جميعًا.

ثم ابتسم بخبث وهو يقول:

- ولا تنسوا أن معظم جند الخلافة من الأتراك.

نزل الكلام على مسامع الحضور كالنار أو الصاعقة، فلم ينطق أيُّ منهم بكلمة أخرى وكأنهم رضوا بأن يسلموا إرثي أنا.. أنا المنصور ومجدي إلى هؤلاء الملاعين.

نعم يا ولدي، تولى المتوكل على الله الخلافة، فقد كان ألعوبة في أيديهم إلا أنه سأم من كل هذا فأعلن حربه عليهم

وكأن المتوكل يصارع اللعن.

خرسان..

مرو..

قصر الإمارة..

٨٥٠ م

يدخل والي خرسان التركي (إيتاخ) إلى مجلس حكمه، ولكنه ما إن دخل حتى أدرك أنَّ هناك شيئًا غير عاديّ، فالمجلس كان خاليًا من وزراءه الذين استعادهم ولم يجد إلا جند ملثمون يلبسون السواد، فقال لهم:

- جند الخلافة وحرس أمير المؤمنين في قصري**!** ما الأمر؟ هل مولانا أمير المؤمنين في خرسان دون أن أعلم؟

فابتسم أحدهم وقال:

- لا أيها الـإيتاخ**!** إنما أمرنا أن نحضرك إلى مجلس الخلافة في سامراء حيًا مقيدًا أو مقتولًا مقطوعَ الرأس.. فأيهما تريد؟

وقبل أن ينطق بحرف واحد كان الجند قد قيدوه في أغلاله وذهبوا به إلى المتوكل في سامراء الذي صاح قائلًا:

- الأول.

وهكذا ضرب المتوكل على الله ضربته الأولى وتخلص من أعتى قادة الأتراك، وكانت الضربة التالية كانت قاضيه وبحق، ولكن يا ولدي كان المتوكل يعدها لتكون قاضية على الأتراك إلا إنها كانت قاضية له.

المتوكل الذي كان ما زال تحت سيطرة الأتراك قال لأحد جلسائه:

- لولا أخي أمير المؤمنين الواثق لما تسلَّط هؤلاء الملاعين على الخلافة، ليته قد عهد إلى أحد قبل وفاته حتى وإن كان ابنه، أما أنا فلا لن أترك الخلافة لهم بعد اليوم. من الغد أعلِنوا ولاية عهدي لأولادي علي الترتيب؛ المنتصر، والمعتز، والمؤيد ولنرَ كيف سيتدخلون في أمر الخلافة من بعدي.

وقع الخبر على رأس قادة الأتراك وقع الصاعقة، فاجتمعوا في دار أحدهم وأخذوا يقلبون الأمر حتى قال أحدهم وهو اتأبش التركي:

- أيها القوم، إن الخليفة قد نسى من نحن ويريد أن يعزلنا من الأمر كله، وإن نجح في ذلك فهذا يعني نهايتنا.

ليرد عليه أحد القادة وهو وصيف التركي:

- أنا من أجلسته على كرسي وأنا من سأنزعها منه عزلًا أو قتلًا.
- كيف هذا؟ إنه يحتاط منا بأبنائه.
- وبهم سنتخلص منه، إنه يفضل المعتز على المنتصر حتى وإن قدم المنتصر في ولاية العهد؛ لذا سوف نوسوس له بأن أباه يريد خلعه من ولاية العهد وهو سيتكفل به.

ثم ضحك ضحكة شيطانية.

نعم يا ولدي، قد فعلها الأتراك وقد زينوا للمنتصر قتل أبيه، فتآمر معهم على قتله، وكانت هذه البداية لاستباحة دماء أحفادي على يديهم، فقتلوا من بعده المنتصر ذاته،

ثم قتلوا ابنه المستعين، ثم المعتز، وحتى محمد بن الواثق عينوه خليفه وخلعوه وقتلوه. ساءت الأحوال في بغداد وسامراء، وأضحت عاصمتي مركزًا للعن أو مقبرة لدفن الموتى من الخلفاء، حتى كاد تنتهي دولتي، حتى جاء أحد أحفادي يدعى المستكفي بالله، الذي سأم كل شيءٍ وأراد التخلص من الأتراك حتى لو استعان بأعدائه أو بالشيطان ذاته، فاستعان بأحد أكبر قادة دولة البويهيين وهو أحمد بن بويه، وكان من الشيعة فأدخله بغداد، وتخلص المستكفي من الأفعى بأفعى أكبر وتشيعت بغداد كلها إلا خليفتها!

ولكن الأمر لم يطل كثيرًا حتى جاء الأتراك وعادوا في ثوب المخلص من الشيعة ليبدأ فصلٌ جديدٌ من فصول بغداد الحزينة.

"دراهم سُكت في عهد الخليفة المتوكل على الله "

الفصل الرابع

ما بين سقوطين!

مدينة المنصور، مجدي ومجد أحفادي قد بدت على حافة الهاوية..

كانت يا ولدي مدينتي منارة للعلم على الرغم من أنها قد أصبحت ساحة لدماء حكامها، وقد كنت أراقب الوضع هناك؛ فالوضع في بغداد كان ينذر بكارثة كبرى، فالخليفة قابع في قصره لا علم له بالحكم ولا علاقه له بكرسي حكمه إلا الاسم فقط.. اسمه فقط، بينما الحل والعقد في يد هؤلاء الملاعين، هؤلاء البويهيون قد استعان بهم أحد أحفادي (المستكفي)، قد سلبوا كل شيءٍ في بغداد؛ سلبوا الحكم، والدين، والشرع، حتى كادوا يسلبوا لقب الخلافة أو سلبوه فعلًا!

فهيا بنا يا ولدي نبدأ قصة جديدة من قصص بغداد.

كانت الأرض من حول مملكتي يا ولدي قد نزعت منها ثياب دولتي، حتى في مدينتي هذه كان المتحكم بها هؤلاء الملاعين من البويهيين يهينون الخليفة والخلافة، وكان من هم على شاكلتهم في مصر والشام المغرب كان في يد الفاطميين وكأن الأرض تشيعت من غربها إلى شرقها.

لو نظرت إلى بغداد يومها لرأيتها تبكي على حالها؛ خليفة ضعيف، وجبارين متحكمين بزمام الأمور. قاهرة المعز تعلو عليها، تعلو على مدينة المنصور حتى سطع نور القاهرة في بغداد فأطفأ نورها وأذهب سلطانها وكأنها تصرخ وتقول: «ابن أنت يا منصور، لقد أوشك بنو فاطمة كما يدعون أنهم من ولد فاطمة الزهراء كذبًا على ابتلاعي.

ولكن يا ولدي هل قرأت في أساطير الأولين أن في مدينة ما يحكمها خليفة فيأتي آخر دون قتال فيحكم فيها لنفسه دون قتال»؟

هكذا بسط الفاطميين نفوذهم على بغداد، فقط أغمض عينيك وسأوضح لك كل شيء.

البداية من بغداد

.....

قصر الخلافة

٤٣٠ هـ

الخليفة القائم بأمر الله يستقبل بهاء الدولة البويهي، وكان قد أذن له الخليفة بالدخول، فدخل إلى مجلس الخليفة متبخترًا في مشيته مزهوًا بنفسه وقد سيطر اتباعه وأجداده وآباؤه على مقاليد الحكم في بغداد، ولم يكن للخليفة إلا اللقب فقط.

الخليفة:

- مرحبًا بقائد دولتنا ومذل أعدائنا وحامي بغداد.

بهاء الدولة:

- مولاي أمير المؤمنين، إنما أنا من صنيعتكم وسيفي لكم لا عليكم.
- نعلم ذلك بارك الله فيك ونفعك بك دولتك.

ثم ضحك الخليفة وقال وهو يضغط على كل حرف:

- أوليس دولتي دولتك يا بهاء الدولة؟!
- نعم مولاي، وإنما أنا خادمكم وما سلطاني إلا من سلطانكم مولاي.

ابتسم الخليفة قائلًا:

- نعلم ذلك وإلا ما الذي جاء بك!
- جئتك بخادم لكم يدعي (البساسيري) قد كان مملوكًا لي أعتقته لما علمت فيه من حسن التدبير والذكاء.
- أدخله نراه.

يدخل البساسيري، لم يكن بالقصير ولكن بنيته كبنية بني قومه، فقد كان تركي الأصل، فقد كان مثل الأتراك من حيث قوة البناء وحسن الطلعة، ذو عينين حادتين.

يعجب به الخليفة ويقول:

- ادنو مني يا هذا، أأنت من الفرس أم الترك؟
- بل من الترك يا مولاي.
- يا بهاء الدولة هدية مقبولة بإذن الله.

وتبسم بضحك وبعد خروج الكل هبَّ الخليفة واقفًا يحدث نفسه:«لأضربن بكم الترك يا بني فارس».

.....

قد كان الخليفة يا ولدي يطمح أن يكون البساسيري هذا سلاحًا يضرب به هؤلاء الملاعين البويهيين؛ لذا قربه من مجلسه وترقى به حتى صار ملك الأمراء وقائد الجيش حينها، يا ولدي لم يدرك أن سحره سينقلب عليه.

قد تجبر ذلك الرجل الذي يدعى البساسيري حتى أصبح يهزأ بالخليفة مجاهرًا بتشيعه، وقد ساءت الأمور إلى أن قام الخليفة بالاستنجاد بالسلاجقة وعلى رأسهم (طغرل بك) الذي كان يحترم مقام خلافتي ويتمنى أن يزول ملك طواغيت البويهيين، ويعيد السنة تحكم مدينتي من جديد، وحينها أدرك البساسيري أن نهايته ستصبح قريبة لكنه كان كالشيطان.

القاهرة

٤٤٧ هـ

قصر الخلافة الفاطمية

يدخل رجلٌ شابٌ يبدو أنه محنكٌ قويٌ يلبس الخضار ويتزين في قبعة رأسه خصلة من شعر يقال إنها من شعر النبي -صلى الله عليه وسلم- متجهًا لقاعة الحكم، فيسبقه إليها الحراس فاتحًا الأبواب صائحًا:

- أمير المؤمنين، حامي الدين والدولة من ولد المصطفى وولد فاطمة الزهراء أبو تميم المستنصر بالله.

فإذا بالحضور في قاعة الحكم قيامًا احترامًا للخليفة القادم إليهم، فدخل وجلس وأشار إليهم بالجلوس فجلسوا، فقال وزيره أبي القاسم علي بن أحمد الجرجائي:

- مولاي أمير المؤمنين أتسمع عن البساسيري؟
- نعم، إنه رجل البويهيين المفضل، وبالتالي فهو رجلنا هناك في عاصمة هذا الأفاك القادر بالله.

- نعم يا مولاي، إنه كذلك، ولكن الملعون ذلك القادر بالله قد استعان بالشيطان الأكبر طغرل بك وإذا دخل طغرل بك بغداد فلا ندري أي البلاد يدخل بعدها!
- نعم هذا صحيح، لا بد أن نساند ذلك البساسيري من جهة ونمنع طغرل من دخول بغداد من جهة أخرى.
- لدي أيضًا خبرٌ آخر، إن البساسيري انسحب من بغداد حين اقتربت منها جيوش طغرل بك، وقد فر منها وبعث إلينا يستنجدنا ويعرض علينا خلع الخليفة وإعلان بغداد لأهل بيت النبي –صلى الله عليه وسلم- في حضرة مقامكم الرفيع فبماذا تأمر؟
- وهل فيها من أمر يا رجل تدعمه على الفور؟

«ولتكن بغداد عاصمة ملكي الثانية».

قالها وهو يضحك كثيرًا..

.....

نعم يا ولدي، قد تكالب كل طواغيت الشيعة لإسقاط مدينتي حتى إن حفيدي (القادر بالله) الذي جاء بعد

(القائم بأمر الله) لم يكن يقدر على أي شيء، حتى إنه قد أرسل يستنجد برأس الشيطان نفسه الملك البويهي الذي كان يدعي كذبًا الملك الرحيم يقول له: «لقد تآمر ذلك البساسيري علينا وكاتب الأعداء وأستطال وتجبر علينا».

فلم تجبه تلك الأفعى إلى شيءٍ فاستنجد بطغرل بك ملك السلاجقة، فجهز الجيوش وزحف نحو بغداد، ففر منها البساسيري وعسكر بجنده عند مكانٍ قريبٍ من بغداد يسمى الرحبة، ولكنه في نفس الوقت كان شيطانًا بث سمومه فأوقع بين طغرل وأخيه (إبراهيم) حتى انقلب الأخ على أخيه وسلَّط أهل بغداد على جيش طغرل، قد أخذ يذكرهم أنهم من الأتراك، فأصبح طغرل بين شقي الرحى فانسحب من بغداد ولكن إلى حين.

الرحبة

أواخر عام ٤٤٩

عسكر البساسيري

يدخل رجلٌ من جند البساسيري عليه في خيمته يقول:

- مولاي أمير الملوك هناك رجلين يطلبان لقاءك.
- من؟
- أحدهما من بغداد والآخر من القاهرة متوشحًا بالخضار ويقول إنه رسول أمير المؤمنين المستنصر بالله.

البساسيري وقد اتسعت حدقتاه:

- أدخله على الفور، نريد لقاءهما.

يدخلان عليه ويدخل معاهما البهجة له؛ فالأول يخبره بنجاح خطته وإن طغرل بك قد انسحب من بغداد، والآخر يخبره أن المدد من المستنصر قادمًا له في الطريق.

وهنا يصبح البساسيري بفرح:

- بغداد لي أخيرًا.

بغداد

٤٥٠ هـ

يدخل البساسيري مدينتي يا ولدي وقد كانت خالية، وحبس أحفادي وأزال ملكي وملك أبنائي، بل إنه أجبر القادر بالله حفيدي على الاعتراف بخلافة الشيعة. نعم، قد أفل نجم مدينتي وقد غربت شمسها.

يا ويحي، مساجد بغداد تدعوا لخليفه القاهرة، الناس يخلعون السواد شعاري وشعار بني العباس، كل شيءٍ قد انتهى أو كاد أن ينتهي لولا ذلك الأسد العائد.

نعم، إنه هو أسد السلاجقة طغرل بك قد عاد يا ولدي إلى بغداد يحررها من دنس هؤلاء، يدخلها بجيوشه فيقبض على آخر رؤوس الشيطان البويهي الملك الرحيم، ثم يفرُّ منها تلك الأفعى التي تدعى البساسيري، فيرسل طغرل بك من يأتي برأسه ويحرر الخليفة، ويبطل الدعوة لخليفة القاهرة، وتتوشح بغداد بسواد العباسيين مرة أخرى.

.....

وهكذا يا ولدي تعود مدينتي للحياة مرة أخرى، ولكنها لمن تكن تعلم أنها عودة إلى الموت المحقق القادم من جبال أواسط الترك.

"خريطة الدولة البويهية بعد الاستيلاء على بغداد"

الفصل الخامس

صحوة الموت..

هيا يا ولدي نكمل القصة.

مدينتي التي ظننت يومًا أنها ملعونة، وبحق لم تعرف الراحة أو السكون، وكأنها بنيت من نار ورماد ملتهب، منذ أن بنيتها وبدأتْ فيها حلقات الدم تتسع منذ الأمين والمأمون، ثم تَحكُّم الأتراك فيها، ثم أولئك شيعة الفرس البويهيين، ومن ثم أتراك السلاجقة. مرة أخرى أقول لك يا ولدي؛ إن الأتراك هم الأتراك، سواء كانوا سلاجقة أو غير ذلك، فهم المتحكمون في الخليفة والخلافة وإن كانوا سنة، ولكن يا ولدي قد حلَّ الضعف مكان القوة في دولتهم وفشلوا في صد هجوم الإفرنج أيضًا، تقطعت أواصل دولتي أكثر؛ ففي بلاد الشام كان الإفرنج الصليبيين قد مزقوا بلاد الشام، واستولوا على ساحل بلاد الشام بداية من أنطاكية ومن ثم طرابلس الشام وصولًا إلى بيت المقدس؛ درة مدن الإسلام، وثالث الحرمين الشريفين، وأولى القبلتين قد سُلبت، لم يستطع أحفادي أن يدفعوا هذا البلاء عن بلاد الإسلام، فقد كانت تلك المدن تحت سيطرة ملاعين الشيعة في مصر، ولكن الإفرنج اقتربوا من عرين أحفادي حين احتلوا الرها وهنا كانت كارثة فرها شمالي العراق، ولكن دعنا نحكي تلك الحكاية من البداية..

ستعرف أن مدينتي تلك استفاقت من سبات نومها العميق، سترى فيها كيف كان أحفادي قد اعلنوا الحرب على كل من هو من جنس الترك. أحفادي أنا المنصور العظيم قد أعلنوا الصحوة.

صحوة بغداد..

بداية من حفيدي (المسترشد بالله) التي أعلنها أنها لعنة الحرب على الترك!

لكنهم لم يدروا أنها ستكون الصحوة الأخيرة، صحوة الموت؛ فقط أغمض عينيك وستشاهد المشهد كاملًا!

.....

بغداد

قصر الخلافة

٥١٢ هـ

الخليفة الصغير يدخل مجلس الحكم، قد ألبسوه لباس الخلافة وتوّج بالسواد شعار بني العباس، وقد أسموه المسترشد بالله وأجلسوه على عرش الخلافة خلفًا لأبيه الخليفة أحمد المستظهر بالله.

الترك مستبشرون به، سيكون ألعوبة في أيديهم أيضًا كما كان أبوه هكذا توهموا.

المسترشد بالله قد شبَّ واشتد عوده، بدأ يُظهِر للترك وسلاجقتهم أنيابه قد بدأ يتحكم في دولته، بدأ يعين الولاة ورجل السلاجقة كان يدعى (مسعود بن محمد بن ملكشاة) يراقب في صمت حتى قرر أنَّ الخليفة قد تجاوز كل خطوطه الحمراء؛ لذا أطلق سلطان الترك كلابه على العراق وتحدى سلطة الخليفة والخلافة، فكان ردُّ المسترشد أن جهز جيوشه وانطلق إلى بلاد فارس وبالأخص (همذان) عاصمة ذلك المتكبر وقد أقسم ألا يعود إلا وقد دكَّ عاصمة الترك على كل من فيها.

بلاد فارس

همذان

٥٢٩ هـ

تتحرك جيوش الخلافة لتضع حدًّا لتعديات ذلك المتعجرف الذي يدعى مسعود، وهو الآخر يجهز جيوشه وكأن الخلافة قد استفاقت من سبات نومها وكأنها صحوة الموت، ولكن ما حدث ليلة ما قبل الحرب كان ينذر بما سيأتي.

معسكر الخليفة

الخيمة الكبيرة حيث كان الخليفة جالسًا فيها مع وزراءه، يرتبون آخر خطط المعركة حين دخل أحد الحراس عليه قائلًا:

- مولاي أمير المؤمنين هناك أحد الفرسان يريد لقاءك على وجه السرعة.
- أدخله.

الفارس يدخل فيقول:

- السلام على مولاي أمير المؤمنين.

الخليفة:

- وعليك السلام.. ما وراؤك وما بال وجهك وكأنه تخطفته الطير تكلم!
- مولاي أمير المؤمنين، قد رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المنام، وقد سألته عن مصير الجيش تلك الملحمة فقال: «مكسور مقهور».

وقع الكلام على مسامع الحضور كالصاعقة، وقد قال أحدهم:

- نرجع يا أمير المؤمنين يرحمكم الله.

ولكن الخليفة فاجأهم برده وصاح فيهم قائلًا:

- ويحكم لا نرجع ولا نتقهقر ولو شبرًا واحدًا! ويحكم نرجع ويكذّب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-؟! لا والله ما بقي لنا رجعة، ويقضي الله ما يشاء.

....

تندلع الحرب، ينكسر جيش الخليفة ويأسر مسعود الخليفة، فتهيج بغداد وتتوشح بالسواد وحتى بلاد فارس تخرج بالسواد وكأن لعنه أسر الخليفة قد حلت عليهم حتى يصل الخبر إلى سلطان السلاجقة الكبير (سنجر السلجوقي) فيفجعه ما حدث لمقام الخليفة من تعديات. ابن عمه ورجله مسعود السلجوقي فبعث إليه يوبخه على انتهاك حرمة الخليفة وأسره، ويأمره بأن يطلقه وأن يضع نفسه رهن إشارته، ولكن مسعود كان له رأيٌ آخر.

.....

خيمه الأسر

الظهر الأخير

.....

المسترشد بالله جالس في محبسه بخيمة صغيرة لا تتناسب مع خليفة الإسلام، يجلس منزوعًا عنه عمامته، يقرأ القرآن وقد فرغ منذ لحظات من صلاة الظهر، وفجأة يدخل عليه رجلان ملثمان وحينها قال الخليفة:

«إنا لله وإنا إليه راجعون.. ألا لعنه الله على الظالمين...».

ولم يكمل قوله حتى قتلوه.

وعاد الترك إلى عادتهم من قتل الخلفاء تارة أخرى، وحين تولى ابنه الحكم الراشد بالله أراد أن يتخذ بالثأر، ولكن مسعود تحرك فحاصر بغداد وفرَّ الراشد من بغداد فخلعه مسعود من الخلافة كالعادة وكأن الخلافة ألعوبة في أيديهم، وولي مكانه عمه (المقتفي لأمر الله) الذي جند الجنود وجيش الجيوش حتى إذا مات مسعود استعاد المقتفي لأمر الله الخلافة والحكم وأعاد الهيبة للخلافة.

وتم إسقاط هيبة سلاجقة الترك من أعين الناس وبغداد وكأنها تستعيد مجدها البائد، فالمقتفي هذا وخلفاؤه كانوا بمثابة صحوة لها ولكنها صحوة الموت!

نعم يا ولدي، كل هذا اللعنات حدثت في مدينتي إلى أن جاء حفيدي الذي يدعى المقتفي لأمر الله هذا وأعاد لبغداد هيبتها واستعاد قائده (عماد الدين زنكي) إمارة رها من يد الإفرنج الصليبيين، وبدأت مدينتي وكانت تستعيد مجدها حتى إذا جاء حفيدي (الناصر لدين الله) الذي حكم

الخلافة طيلة (٤٧عام) لتكون تلك اللحظة الصحوة الأخيرة لبغداد هي:

صحوة الموت..

صحوة الدمار..

صحوة النهاية..

صحوة الدم..

.....

صحوة الموت

بغداد

قصر الخلافة

٥٧٥هـ

.....

وليت وعام الناس أحمر ما حل ... فجدت وجاد الغيث وانقطع المحلُ

وكم لك من نعماء ليس بمدركٍ ... لها حاسب يومًا وإن حسب الرمل

بهذه الأبيات التي ألقاها (يحي بن زيد العلوي) أحد زعماء الشيعة ونقيب آل البيت -بيت علي بن أبي طالب- افتتح ذلك الجالس على كرسي الخلافة عهد خلافته، كان من أحفاد ذلك العزيز الذي يحكي تلك الملحمة، كان حفيد المنصور العظيم سماه أبوه أحمد، ولقب نفسه حين تولي الخلافة بالناصر للدين الله.

اجتمعت في يديه كل مفاتيح السلطة، فها هو يمد سلطانه غربًا لبلاد الشام والحجاز ومصر، ويعلن صلاح الدين

الأيوبي ولاءه له ويبعث له مفاتيح بيت المقدس التي استردها من صليبي الإفرنج، وأعلنت القاهرة الطاعة لخليفة بغداد هي ودمشق ومكة والمدينة وبيت المقدس وكأن بغداد تصيح وتقول: «أنا لم أمت، ما زلت عاصمة الدنيا، أنا الحاكمة المتحكمة».

وأما شرقًا فقد امتداد سلطانه لبلاد الفرس، وتسقط سلاجقة الفرس الترك، وضرب ترك السلاجقة بترك الخوارزميين، ولكن يا ولدي كعادة الترك أينما كانوا أرادوا أن يتسلطوا على الخليفة والخلافة، واجتاحوا بلاد العراق وهددوا بغداد، وهنا جاء رد الناصر عليهم لكنه لم يأتِ من بغداد وإنما أتى من حدود دولة الخوارزميين أنفسهم. نعم، قد جاء رد الناصر من بلاد المغول وبالتحديد من عاصمة التتر (قراقورم) ليعلن بداية النهاية، ليس لخوارزم فحسب وإنما لبغداد أيضًا!

.....

هكذا يا ولدي توهم حفيدي أنه سيقضي على الخوارزميين بالمغول والتتر، ولكنه لم يكن يعلم أنه بذلك قد وضع النهاية لمدينتي وحاضرة ملكي، ولكن دعني أخبرك القليل عنهم أولًا؛ فالمغول يا ولدي هم قبائل بدوية

تعيش في هضاب منغوليا على حدود دولة الخوارزميين، توحدوا تحت قيادة ذلك الشيطان الذي يدعى (جنكيز خان) واستوحشوا حتى استولوا على أراضي التتر وجنوب الصين وأصبحوا دولة قوية على حدود دولة الخوارزميين، واتخذوا من (قراقورم) أحد مدن منغوليا عاصمة لهم، وكانت تلك البداية لنهاية كل شيء.

قراقورم

(عاصمة المغول)

الخيمة الكبرى

.....

يدخل أحد جنود المغول على جنكيز خان الجالس في خيمته الكبرى، كعادة المغول ينصبون خيامهم في الصحراء متكئ على أريكة ملكه المزخرفة، وأمامه كل ما لذَّ وطاب من أصناف الطعام أو النساء! فيقول الجندي:

- مولاي الخاقان الأعظم جنكيز خان، هناك رسالة من بغداد مرسلة إليكم.
- ائتِ بها إليَّ ولا تدخل ذلك الرسول علينا.

ينفذ الحارس الأمر، وحين استلم جنكيز خان الرسالة وقرأها ضحك مقهقهًا ويقول:

- خليفة بغداد يطلب مني أن أحارب باسمه بنو دينه! يا له من أحمق سيأتي يومٌ وسأدخل بغداد لا محالة، ولكن بعدما أن أقضي على أعداء ذلك

الخليفة، وأما الآن فسأصالح سلطان الخوارزميين وأما إن يبقي تابع لي أو يستعجل قضائي عليه إرضاء لخليفته.

وضحك طويلًا.

بلاد خوارزم

سمرقند

(عاصمة الخوارزميين)

قصر السلطان محمد خوارزم شاه الثاني

١٢١٦ م / ٦١٣ هـ

السلطان محمد يجلس على عرشه وقد علم أن هناك رسل من ملك التتر جنكيز خان قد وصلوا وينتظرون أذنه في الدخول عليه، فيأذن لهم وبجانبه يجلس أحد الأمراء وهو (محمود الخوارزمي).

فيتقدمون إليه وينحنون له ويقول أحدهم:

- بعثنا مولانا المظفر دائمًا جنكيز خان برسالة إليكم مولاي السلطان المعظم فتفضل.

فيأخذ منه الرسالة ويقول لهم:

- سينظر في طلب خانكم الأعظم وما جاء في رسالته، وسنبلغكم ردنا وإلى حينها ستبقون ضيوف علينا!

ثم ينادي:

- أيها الحارس خذ ضيوفنا وأكرم وفادتهم بما يليق بمقامنا نحن بني خوارزم سلطان الإسلام.
- أمر مولاي.

ثم يقوم الحارس باصطحاب الرسل إلى مكان ضيافتهم وبمجرد خروجهم قال السلطان: إني لا أستريح لألاعيب هؤلاء القوم فماذا ترون؟

الأمير محمود:

- دعنا يا مولاي نقرأ رسالته حتى نعرف فحواها.
- خذ واقرأها على مسامع رجال دولتنا!

يأخذ الأمير محمود الرسالة ويبدأ في القراءة:

«ليس يخفى عليّ عظيم شأنك وما بلغت من سلطانك وقد علمت بسطة ملكك وإنفاذ حكمك في أكثر أقاليم الأرض. وأنا أرى مسالمتك من جملة الواجبات، وأنت عندي مثل أعز أولادي، وغير خاف عليك أيضًا أنني ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك، وقد أذعنت لي قبائلهم،

أنت أخبر الناس بأن بلادي مثارات العساكر ومعادن الفضة وأن فيها الغنية عن طلب غيرها، فأن رأيت أن تفتح للتجار في الجهتين سبيل التردد، عمت المنافع وشملت الفوائد».

وما إن انتهى الأمير محمود من قراءتها حتى تغير وجه السلطان قائلًا بغضب:

- يخاطبني وكأني تابع له، يقول لي ولدي ليخبرني بأني تابع له!

الأمير محمود:

- مولاي دعك من هذا وانظر إلى جملة الفوائد وهو يعلم مدى قوتك فلا يستفزنك قوله هذا.
- سأوافق على طلبه و سأراقب أفعاله وأقسم أن أفتح بلاده إن أخطأ.

وبالفعل تتصارع الأحداث وتتوالى على مدار سنوات قليلة بعد أن وافق السلطان على طلب جنكيز خان في تبادل القوافل، إلا أن جاءت أحد القوافل التجارية المغولية إلى مدينة (إترار) إحدى مدن الخوارزميين

وكان حاكمها يومئذ ابن خال السلطان يدعي (ينال خان) الذي شك في أمر القافلة؛ فأعتقلهم واتهمهم بالتجسس، وبعث بأمرهم إلى السلطان محمد الذي أمر بقتلهم على الفور.

وهنا حين وصل الخبر لجنكيز خان جنَّ جنونه وبعث إلى السلطان برسالة يقول فيها:

«إنك قد أعطبت خطك ويدك بالأموال للتجار، وألا تتعرض إلى أحد منهم، فغدرت ونكثت، والغدر قبيح، ومن سلطان الإسلام أقبح، فإذا كنت تزعم أن الذي ارتكبه ينال خان كان من غير أمر صدر منك فسلم ينال خان إليّ لأجازيه على ما فعل، حقنًا للدماء، وتسكينا للدماء وإلا فأذن بحرب ترخص فيها غوالي الأرواح، وتتعضد معها عوامل الرماح».

حين وصلت الرسالة إلى السلطان فأمر بقتل رسل المغول إلا كبيرهم الذي أرسله إلى جنكيز خان وقد حلق له ذقنه، حينها استشاط جنكيز خان غضبًا ثم قال:

- قد أوتيت سؤلك يا خليفته، ولكني أقسم أني لن يكفيني بلاد خوارزم أيها الناصر، بل ستجدني في عاصمة ملكك بغداد.

.....

آهٍ يا ولدي! كم تمنيت أن لا يحدث هذا في خلافة أحفادي، أنا المنصور -أبو جعفر- قد ضاعت هيبة الخلافة جنكيز خان اكتسح كل شيء أمامه، اكتسح بلاد خوارزم ودمَّر بلاد خراسان، وقتل الناس قد قتل ربع سكان البلاد، دمر سمرقند وبخاري حتى المدن التي لم تقاوم كان يساويها بالأرض وكأن جيوشه تقول من يستطيع إيقافي فليفعل، ولم ينجد دولتي موته المفاجئ لأن جيوشه كانت قد داست على كل شبر في أرضي ولأنه أوصى قبل وفاته بتدمير بغداد فنفذ خليفته وكان يدعى (منكو خان الوصية) وجهز جيوشه بقيادة ذلك الشيطان (هولاكو) ليمحو أرض خلافتي وقد بدأت جيوشهم تجتاح العراق في طريقهم لبغداد على يد حفيده هولاكو، ولتكن تلك إذًا صحوة بغداد الأخيرة.

"شعار دولة السلاجقة"

الفصل السادس

يوم أن خانها الوزراء

إن النهايات دائمًا ما تكون صعبة، ولكن يا ولدي هذه النهاية التي كُتبت على مدينتي تلك كانت ملطخة بالدماء وكل شيء فيها مباح مستباح.

نعم يا ولدي، مدينة المنصور قد حان موعد دفنها، ليتك ترى الصورة كما كانت لوجدت الدمار في كل شيء، ستجد الجثث تملأ الطرقات والمكتبات مهدمة والكتب محروقة أو ملقاة في نهر دجلة.

ستجد مسجدي مهدوم وكان يسمى بمسجد الخلفاء، ولكن أين هم الخلفاء قد ذهبوا!

ولو نظرت هناك حيث الأسواق والحانات لشممت رائحة شواء حرق البشر، ستجد الحانات محروقه بكل من كان داخلها من بشر أو حيوان، لو نظرت لبيوت بغداد فوجدتها خاوية على عروشها، أما رجال بغداد فمنهم من قُتل حرقًا ومنهم من قُتل ذبحًا ومنهم من قتله قهره وحسرته.

حتى أطفال بغداد وشيوخها لم يشفع لهم سنهم شيئًا؛ فأما الشيوخ قتلى، وأما الأطفال فإما قتلى أو عبيد، وأما نسوة

بغداد فقد انتهكت أعراضهن أو تم سبيهن أو قتلهن، وأما حفيدي هذا آخر خلفاء بغداد فقد كُتب عليه الموت عدة مرات؛ مرة يوم سجنه، ومرة يوم أن رأى عاصمته مهدمة، ومرة يوم أن رأى بناته الثلاث سبايا عند أولئك الملاعين، ومرة أخيرة يوم أن حُبس مع كنوزه، مرة أخيرة يوم أن قُتل ضربًا وخنقًا وغرقًا.

ولكن يا ولدي إن للحكاية أصل وبداية، فهيا نحكي من جديد آخر فصول بغداد الحزينة يوم أن خانها الوزراء.

يا ولدي كان كل شيء قد بدأ يقترب من النهاية، فالتتار يتمركزون في بلاد فارس يحتاجون كل شيء أمامهم، يقتربون أكثر من العراق يهددوا مدينتي -مدينة المنصور-

ولكن لو نظرت إلى بغداد فستجدها في أسوأ حالة، ولو تمعنت في النظر سترى الحقيقة كاملة، خليفة ضعيف يدعى كذبًا المستعصم بالله، ووزير خائن يدعى ابن العلقمي، وقائد جيش أهوج يدعى مجاهد الدين دويدار.

وهذه كانت بداية النهاية، فقط أغمض عينيك وسترى المشهد كاملًا.

....

بغداد..

قصر الخلافة..

قاعة الحكم..

١٢٥٦

يدخل الخليفة المستعصم بالله قاعة الحكم وتبدو على وجهه علامات الغضب والانزعاج، وينظر إلى الواقف عن يمينه ويقول:

- ما دهاك يا ابن العلقمي؟ ألا تعلم أني الآن منشغل بالنساء!
- مولاي أمير المؤمنين العفو، ولكن الأمر جدًا خطير، ليتك قد أخذت برأيي وأجبت هولاكو إلى طلبه حين طلب منك العون في القضاء طائفة الحشيشية!

حينها قطع كلام ابن العلقمي صوت ضحكة بسخرية من ذلك الواقف يسار الخليفة، إنه هو قائد الجيش مجاهد الدين دويدار، وقال بسخرية لازعة:

- أهذا يعقل أنَّ ابن العلقمي كان يريد من أمير المؤمنين أن يتعاون مع ذلك الملعون هولاكو في القضاء الحشيشية وهم من طائفة الشيعة أي من طائفتك.

وكاد أن يردَّ عليه ابن العلقمي لولا أن الخليفة قاطعهما قائلًا:

- ليس هذا بوقت لذلك الحديث، أرني أنظر ما في أمر رسالة ذلك الرجل.
- مولاي إن رسل المغول في الخارج تنتظر الرد وهذه هي الرسالة.

يبدأ الخليفة في قراءة الرسالة وقد بدأ الزعر واضحًا على وجهه، وما إن انتهى من قراءتها حتى قال بصوت عالٍ وكأنه يريد أن يتغلب على خوفه:

- أي جراءة تلك التي يتكلم بها هذا الرجل، إنه يكلمني وكأنه الخليفة ولست أنا! يبدأ بنفسه أولًا

ثم يعاتبني أنني لم أستجب لطلبه في إرسال الجيوش لمساعدته، ثم يطالبني أن أهدم دفاعات بغداد وأن أسلم البلاد لولدي، وأن أوافيه حيث كان وإلا فإنه يختم رسالته بقوله: «وإن لم تستجب لِلنصيحة وتفضَّل الخِلاف والجدال، فلا يبقى عليك إلَّا أن تُعبئ عساكرك وتحدد ساحة القتال».

ما إن أنهى الخليفة حديثه حتى عمَّ السكوت أرجاء القاعة وشق السكوت صوت الخليفة عاليًا مرتعشًا:

- ماذا ترون يا رجال دولتنا؟ ماذا ترى يا ابن العلقمي؟
- مولاي الرأي عندي ألا تذهب إليه، ولكن هادنه، فابعث إليه برسالة تلاطفه وتهادنه وتهدم جزء من دفاعات بغداد، وابعث إليه بهدية وسيرضى بذلك.

يتكلم مجاهد الدين دويدار حتى دون استئذان للخليفة:

- ومن أدراك أن هولاكو سيرضى بذلك؟ أهو أعلمك بذلك؟ يا لك من رجلِ سوءٍ!

يتكلم الخليفة صائحًا:

- أي هراء هذا! دعوا هذا الآن.. وما رأيك أنت يا قائد جيوشها؟

مجاهد الدين:

- إن جيش أمير المؤمنين على أهبة الاستعداد والكمال وجاهز لسحق جيوش ذلك المتعجرف، ارفض عرضه وسيكون مهلكه على يد جندك يا أمير المؤمنين.

تفلت ضحكة ساخرة من شفتي ابن العلقمي قائلًا:

- أي جند هؤلاء يا وزير الخليفة؟ ألا تعلم أيها القائد أن عدد جندك لا يتجاوز عشرة آلاف مقاتل أمام جيش تعداده يفوق مائتي ألفًا.
- كفاكم جدالًا يا قوم، قد اتخذت الحل؛ لن أهدم أي دفاعات، وسأرسل رسالة إلى ذلك الذي يدعى هولاكو ما بين الترضية والوعيد، وسأبعث معها

هدية، ولكن رُسل هولاكو لن يأتوا إلى بغداد هكذا فيخرجوا منها سالمين.

- ماذا تعني يا مولاي أتقصد قتلهم؟!

مجاهد الدين:

- إن كان هذا فهو وأيم الله المراد والمبتغى.

الخليفة:

- كلا، ولكني سأسلط عليهم غوغاء بغداد حتى يعلم أن في بغداد شعبًا يكرهه.

ابن العلقمي يردد في سره:

- فليرحم الله إذًا شعب بغداد.

الخليفة مستطردًا:

- سأرسل له رسالتي مع شرفُ الدين بن الجوزي وبدرُ الدين النخجواني.

وما إن خرج رسل المغول ومعهم رسل الخليفة من القصر حتى اصطف عامة بغداد بعد أن قام الخليفة

بتهييج العامة، فقاموا بالتعرُّض لرسل المغول، فتعرض رسل المغول للإهانة والبصق، وتمزيق ملابسهم حتى تمنوا أن يخرجوا منها سالمين.

.....

همذان

قصر هولاكو

قد اجتاحت جيوش المغول بلاد فارس، واتخذوا من همذان مستقرًا لهم حتى قصور السلاجقة قد أصبحت مستقرًا لهولاكو هذا ومن معه.

يدخل رسل هولاكو عليه في قاعة الحكم في القصر، فيغضب من مناظرهم ويقول بأعلى صوتٍ:

- لن يرحم أهل بغداد مني سوى الموت ثم يصيح، ادخلوا رسل المستعصم.

فيدخل رسل الخليفة ويسلمونه رسالته.

«أيُّهَا الشَّابُ الحَدَث! المُتَمَنِّي قِصْرَ العُمْر، وَمَن ظَنَّ نَفْسَهُ مُحِيطًا وَمُتَغَلِّبًا عَلَى جَمِيْعِ العَالَمِ، مُغتَرًّا بِيَومَينِ مِنَ الإِقْبَالِ أَلَا يَعْلَمُ الأَمِيْرُ أَنَّهُ مِنَ الشَّرقِ إِلَى الغَربِ، وَمِنَ المُلُوكِ إِلَى الشَّحَّاذِينِ، وَمِنَ الشُّيُوخِ إِلَى الشَّبَابِ مِمَّن يُؤمِنُونَ بِاللهِ وَيَعْمَلُونَ بِالدِّينِ، كُلُّهُم عَبِيدُ هَذا البَلَاطِ وَجُنُودٌ لِي. إِنَّنِي حِينِمَا أُشِيرُ بِجَمعِ الشَّتَاتِ، سَأَبدَأُ بِحَسْمِ الأُمُورِ فِي إِيرَانَ، ثُمَّ سَأَتَوَجَّهُ مِنهَا إِلَى بِلَادِ طُورَانَ، وَأَضَعُ كُلَّ شَخصٍ فِي مَوضِعِهِ خُصُوصًا وَإِنَّنِي مَعَ الخَاقَانِ وَهُولَاكُو خَان، قَلبٌ وَاحِدٌ وَلِسَانٌ وَاحِدٌ ولكن تذكر إِنَّ لِي أُلُوفًا مُؤلَّفَةً مِنَ الفُرسَانِ وَالرَّجَّالة.. وَهُم مُتَأَهِبُونَ لَلقِتَالِ».

وما إن قرأ هولاكو رسالة الخليفة حتى ضحك بسخرية قائلاً:

- إن المستعصم هذا مثله مثل الرمح الأعوج وأقسم بروح جدي المقدس دائمًا -جينكيز خان- لأجعلن إعوجاج المستعصم مستقيمًا.

ثم أرسل إلى المستعصم يقول:

«عِندَمَا أَقُودُ جَيْشِيَ الغَاضِبُ إِلى بَغدَادَ، سَأَقْبِضُ عَلَيْكَ سَوَاءَ اختَبَأتَ فِي الجَنَّةِ أو في الأَرضِ، سَأَحْرِقُ مَدِينَتَكَ وَأَرْضَكَ وَشَخْصَكَ، إِذَا كُنتَ حَقًا تُرِيدُ حِمَايَة نَفْسَكَ وَعَائِلَتَكَ المُوَقَّرَة، اسمع نَصِيحَتِي، وَإِن أَبَيتَ ذَلِكَ فَسَتَرَى مَشِيئَةَ اللهِ فِيكَ».

وما إن وصل رد هولاكو للخليفة حتى بدأ كالطفل الصغير الخائف، فأرسل في طلب وزيريه ابن العلقمي و مجاهد الدين، فدخلا عليه وعرض عليهما الخليفة رسالة هولاكو، فقال ابن العلقمي:

- مولاي أدرك الأمر قبل أن يخرج من يديك وأرسل إليه تعتذر له وتسترضيه وتبعث إليه بالجمال والخيول.

فيقول مجاهد الدين:

- لا يا أمير المؤمنين، لا تسمع له رأيًا وأنت يا بن العلقمي لَا تَخشَى القَضَاءَ المُقْبِل، وَلَا تَقُل خُرَافَة، فَإِنَّ بَينِي وَبَينَ هُولَاكو خَان وَأَخِيهِ مِنكُوقَاآن صَدَاقَةٌ وَإِلفَةٌ، لَا عَدَاوَةٌ وَقَطِيعَة. وَحَيثُ إِنَّنِي صَدِيقٌ لَهُمَا، فَلَا بُدَّ أَنَّهُمَا أَيضًا يَكُونَانِ صَدِيقَيْنِ وَمُوَالِيَينِ لِي، وَإِنَّ رِسَالَةَ

الرُّسُلِ غَيرُ صَحِيحَة واني أقسم إن انتهى هذا الأمر لأجتث دابر الشيعة من بغداد يا هذا.

ظهر الغضب على وجه ابن العلقمي وانصرف غاضبًا وهو يردد: وإني أقسم ألا أجعل لخليفتكم هذا موضع قدم بعد اليوم.

همذان

قصر هولاكو

يدخل على هولاكو وهو جالس يأكل وحوله الجواري ورجاله الحراس ويقول:

- مولاي رسالة من بغداد.

هولاكو:

- ادخل حاملها.

يدخل رجلٌ يعتم بالخضار (رمز الشيعة) ويقول:

- السلام على مولاي ملك الأرض ومنفذ أمر السماء المعظم هولاكو.
- من أنت يا هذا؟ أأنت رسول من عند المستعصم؟
- كلا، بل إني وزيره، أنا ابن العلقمي جئت أقدم لك فروض الولاء والطاعة.
- يا لك من رجلٍ! أنت الذكي من خليفتكم هذا، هيا قبل الأرض بين أقدامنا واذهب ومهّد الطريق لنا

حتى تكون حاكم بغداد القادم، هيا الآن انصرف وسنلتقي قريبًا ببغداد.

خرج ابن العلقمي من عند هولاكو يجر رجليه من رعب لقائه، وما إن خرج حتى أمر هولاكو بتجهيز الجيوش.

.....

هكذا يا ولدي كل شيء يقترب من النهاية، فها هو ابن العلقمي يرعب الناس من المغول، ويحثهم على التسليم الفوري إذا دخل المغول بغداد، ثم يتلاعب بالخليفة فأصبح الخليفة ألعوبةً في يده حتى جعله يسرح جند بغداد، حتى أصبحت بغداد بلا جيشٍ، أو إن صحَّ القول بلا حاكم أو خليفة.

جيوش هولاكو تحاصر بغداد بعد أن اكتسحت الكوفة والبصرة.

بغداد

قصر الخلافة

يناير ١٢٥٨

خليفة ضعيف، ووزراء ضعفاء، وأحدهم خائن، وهكذا كان المشهد كله في قصر الخلافة في وقت كان هولاكو قد حاضر بغداد كلها.

«مولاي قد بدأ الضرب يا مولاي».

انتشلت تلك الصرخة من مجاهد الدين دويدار الخليفة من سباته العميقة، ثم أتبعها الخليفة بصرخة:

- المغول هنا يا ويح بغداد، ويا ويحي أنا! ألم يشفع لهم أني تنازلت لهم عن كل البلاد! يا ابن العلقمي ما الحل؟
- مولاي أرى أن تذهب بنفسك إلى هولاكو في خيمته ونحن معك.

قد قالها وضحك في خبث.

.....

نعم يا ولدي قد استمع حفيدي لوزيره هذا الشيطان، وقام بالخروج مع أولاده و وزرائه وكبار رجال دولته إلى هولاكو.

وكانت تلك اللحظة التي ينتظرها هولاكو، فأمر بالإبقاء على حياة هذا ابن العلقمي والخليفة، وأمر بقتل الباقي فقُتلوا جميعًا، ثم أمر الخليفة أن يأمر جنده بأن يلقوا سلاحهم ففعل، وهنا فقط كانت النهاية قد بدأت من تلك اللحظة؛

ففي تلك اللحظة في يوم العاشر من فبراير عام ١٢٥٨ أمر هولاكو باقتحام بغداد.

.....

بغداد

١٠ فبراير ١٢٥٨ م

٦ صفر ٦٥٦ هـ

رائحة الموت في كل مكان تفوح الناس تحاول الهرب من كل مكان، فبغداد بلا جيش أو خليفة أو وزراء الناس تحاول الهرب ولكن إلى أين؟

يتم اقتحام المغول لبغداد فيقول لهم هولاكو:

- لا أريد أن أرى رجلًا يمشي أو طفلًا يحبي، لا أريد أن أرى حجرًا على حجر.

نعم يا ولدي قد نفذ أمر الله، فجنود ذلك الملعون هولاكو قد نفَّذوا الأمر بالدقة وبمنتهي الدقة.

انظر هناك يا ولدي، ستجد مجموعة من الشياطين تحرق ذلك الجامع العظيم الذي يوم صلى فيه أحفادي، بداية من المكتفي بالله وحتى ذلك المسجون المستعصم بالله.

يا ويح بغداد!

انظر هناك ستجد مجموعة أخرى تقتحم دار الحكمة، مكتبة هارون الرشيد والمأمون، لا هذا ليس معقولًا، ماذا يفعلون بها؟ لا يحرقون ما يحرقون، والبقية أسمع بعضهم يقول ألقوا بها في النهر تعبر عليه حوافر خيولنا، نعم قد أحرقوا مكتبة دار الحكمة وألقوا من نجا، من نجا من تلك الكتب في نهر دجلة حتى أسود لونه من حبر الكتب.

نعم يا ولدي أكثر من ربعمائة ألف مجلد قد تم حرقهم أو إلقائهم في نهر دجلة، حضارتي وحضارة أحفادي تحرق وتفرق.

يا ويح بغداد!

أما البشر يا ولدي فلم يسلموا، باستثناء المسيحيين بتوصية من زوجة ذلك الملعون هولاكو؛ لأنها كانت مسيحية.

فها هم يقتلون كل من وجدوه أمامهم من رجال وشيوخ ونساء وحتى الأطفال، حتى من أغلق عليه داره قد

اقتحموا الديار كلها وقتلوا الرجال واغتصبوا وسبوا النساء وأسروا الأطفال أو قتلوهم.

ترى الناس في بغداد وكأنه يوم القيامة، الكل يهرب، البعض اختبئ في مياه الصرف، والبعض اختبأ عند المسيحيين، والبعض ذهب إلى الأسواق وأغلق عليه دكانه وحانته، ولكن هؤلاء الملاعين قد أشعلوا النار فيها، وامتزجت بها لحم البشر بلحم الحيوان في الشواء ورائحة الشواء فاحت ممزوجة بالدم.

وحتى الموتى لم يسلموا من عبث أولئك القوم، فتراهم قد أتوا على مقابر أحفادي وجعلوها رمادًا، نعم قد حرقوا حتى المقابر والموتى داخلها، وأما قصور الأمراء والوزراء فتركوها خاوية على عروشها بعد نهبها إلا قصرًا واحدًا، وهو قصر الخلافة، ففيه آخر قصص بغداد الحزينة.

بغداد (المنكوبة)

قصر الخلافة

١١ صفر ٦٥٦هـ

١٦ فبراير ١٢٥٨ م

هولاكو يجلس في نفس الموضع الذي جلست عليه من قبل أحكم العالم، جلس على نفس الموضع الذي جلس عليه أحفادي العظام هارون والمأمون والمعتصم، وجلس عليه الضعاف أيضًا من أمثال ذلك المحبوس المستعصم الذي استدعاه هولاكو فدخل ذليلًا وقد كان قبل ذلك يدخل قصره معززًا مكرمًا.

هولاكو:

- أيها الخليفة، إن المغول ضيوف عليك في قصرك، أفلا تود أن تكرمَ ضيوفك؟

المستعصم:

- سأهديكم كل ما هو غالٍ.

فإذا بالمستعصم يدل هولاكو على مكان الذهب و غيرها، حتى أنه جُمع ما تحصل عليه هولاكو وغيره من قادة المغول فأصبح كالجبال العظيمة، فقال هولاكو للمستعصم:

- إِذَا كُنْتَ تَعرِفُ أنَّ الذَّهَبَ لَا يُؤكَلُ فَلِمَ احتَفَظتَ بِهِ، وَلَم تُوَزِّعَهُ عَلَى جُنُودِكَ، حَتى يَصُونُوا لَكَ مُلكَكَ المَورُوثُ مِن هَجَمَاتِ هَذَا الجَيشِ المُغِيرِ؟ وَلِمَ لَم تُحَوّلَ تِلكَ الأَبْوَابَ الحَدِيدِيَّةِ إلى سِهَامٍ وَتُسرِعَ إلى شَاطِئَ نَهرَ جَيحُون لِتِحُولَ دُونَ عُبُورِي.

- كل ما يجري هو تقدير الله.

- وَمَا سَوفَ يَجرِي عَلَيكَ إِنَّمَا هُوَ تَقدِيرُ الله، ولكن أولا أهؤلاء النسوة بناتك؟

نظر المستعصم فإذا هن فاطمة وخديجة ومريم بناته الثلاث فبكى وقال:

- ليتني مت قبل هذا وكنت نسيًا منسيًا.

فأمر هولاكو بحبسه وقال:

- نمنع عنك الطعام فإذا أردت الطعام فكل من ذهبك الذي أحبسك معه.

وبعدها بثلاثة أيام وبالتحديد يوم ١٤ صفر ٦٥٦هـ / ١٩ فبراير ١٢٥٦ م

أمر هولاكو بإعدام آخر أحفادي في بغداد، وقال أعدموه ضربًا وخنقًا لا ذبحًا؛ حتى لا يكون له ثأر عند القوم وألقوا بجثته في النهر.

وهكذا آخر أحفادي، فقد كُتب عليه الموت عدة مرات.

مرة يوم سجنه، ومرة يوم أن رأى عاصمته مهدمة، ومرة يوم أن رأى بناته الثلاث سبايا عند أولئك الملاعين، ومرة أخيرة يوم أن حُبس مع كنوزه، ومرة أخيرة يوم أن قُتل ضربًا وخنقًا وغرقًا وبها تنتهي معها مدينتي، وتختفي أيام عزي فاليوم أفارقك فراقًا لا لقاء بعده أبدًا، ولكن قبل فراقنا لا بد من الختام الحكايات بغداد.

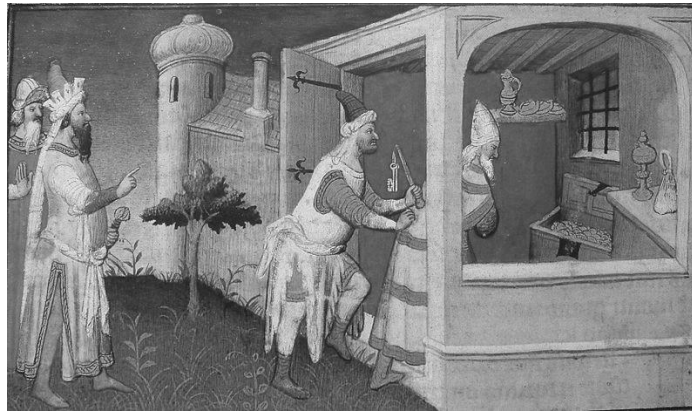

"هولاكو يحبس الخليفة المستعصم بالله مع كنوزه"

الخاتمة

وهكذا يا ولدي، كانت نهاية بغداد انتهت بمأساة عظيمة وإن كانت لم تختفِ، ولكنها ذهبت في طي النسيان لم يذكرها أحد بعدها إلا كذكرى مجد غائب غاب ولم يعد، ظلت يا ولدي مدينتي تنتقل من سلطة إلى أخرى حتى استقرت في يد الصفويين أحفاد ذلك الشيطان الذي يدعى إسماعيل الصفوي الذي حكم بلاد فارس، وجعلها تتشيع، وحاول جعل العراق تتشيع لولا بني عثمان سليم الأول وولده سليمان القانوني، ولكن بعدها نجح أحفاده في أخذ بغداد من العثمانيين، وجعلوها تتشيع لولا السلطان مراد الرابع الذي صمم على أن تكون بغداد عثمانية، فجهز الجيوش وقادها بنفسه، وهزم أولئك الملاعين الشيعة من بني إسماعيل الصفوي، وبقيت بغداد في حكم الدولة العثمانية حتى جاست الحرب العالمية الأولى، وانكسرت فيها شوكة العثمانيين واستسلموا ليكون سقوط بغداد أبشع، فقد سقطت في يد صليبي الغرب الحديث ودخلها الحلفاء، ثم أعطي مؤتمر سان ريمو الذي عُقد في إيطاليا عام ١٩٢٠ العراق لبريطانيا وكأنها قطعة

حلوي تُهدى، ليست بشرًا وأرضًا ولكن في تلك المرة مدينتي قد خرجت لتقول كلمتها في وجه العدوان، وخرجت من وسط بغداد تلك الثورة العارمة ثورة العشرين في عام الانتداب؛ لتقول لبريطانيا: «إن كنتِ قد أخذتِ العراق وبغداد بلا جهد فإنك لم تسترِحي فيها».

ثم تكونت المملكة العراقية الأولي في بغداد، ولكن بغداد كان قد كُتب على كل من حاول أن يملكها أن ينتهي، فتنتهي المملكة الأولي باغتيال الملك فيصل بن الحسين، تأتي المملكة الثانية وتسقط أيضًا لتقوم مكانها الجمهورية، ثم تتصارع الأحداث وتتوالى حتى يتوالى صدام حسين الحكم في انقلاب كعادة حكام بغداد عام ١٩٧٤ م، فتنهض بغداد وتقوى وتبدأ وكأنها تستعيد مجدها الغابر، حتى يرتكب صدام جريمة في حق نفسه فيجتاح الكويت عام ١٩٩٠ وبعدها يدخل الشيطان أرض المعركة (الولايات المتحدة الأمريكية) بحجة تحرير الكويت، وتبدأ معاناة بغداد من حصار اقتصادي بغيض، فتبدوا بغداد قريبة من سقوطها الأخير الذي حدث بالفعل حين قامت الولايات المتحدة الأمريكية بحجة أسلحة الدمار الشامل التي توجد في العراق كذبًا أن تجتاح العراق.

في مشهد يذكرني يا ولدي باجتياح المغول للعراق، ودعني أجعلك تشاهد آخر مشاهد الحكاية.

بغداد

٩ إبريل ٢٠٠٣

وبعد حوالي شهر من بدأ اجتياح الولايات المتحدة الأمريكية للعراق، تدخل القوات الأمريكية بغداد تكتسح بغداد.

دمارٌ شاملٌ في كل مكان، اجتياح واغتصاب للتاريخ، مدينة المنصور قد سقطت اليوم ولن تعود، أهالي بغداد ذاتهم ينهبون بغداد، متاحف بغداد قد نُهبت أيضًا، شياطين أمريكا تراهم في كل مكان يغتصبون كل شيء ويهتكون الأعراض.

يقتحمون قصور بغداد كما اقتحامها المغول من قبل، كانوا هم مثل المغول أيضًا ولكنهم أكثر خبثا ودهاءً، وعند تلك النقطة تنتهي حكاية بغداد يا ولدي، ولن تراني أنا بعد اليوم، حتما سنلتقي قريبًا، ولكن ربما بوجهٍ جديد ومدينة جديدة؛ فانتظر وكن مستعدًا!

تمت

الخميس- ٢ / ٧ / ٢٠٢٠

هوامش

شخصيات للتوضيح

١- إيتاخ التركي: يقال له إيتاخ الخوري أحد قادة المعتصم بالله وكان له دورٌ هامٌ في فتح عمورية.

٢- السلطان سنجر السلجوقي: هو السلطان السادس في السلالة السلجوقية، واسمه أبو الحارث سنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان وهو آخر السلاجقة العظام.

٣- محمد بن خوارزم شاه الثاني: هو أحد ملوك الدولة الخوارزمية وهو من تحدي جينكيز خان، ولكنه هزم وهرب ومات في جزيرة نائية عام ١٢٢٠م

أهم الخلفاء:

١- أبو جعفر المنصور: أبو جعفر عبد الله المنصور بن مُحمد بن عَلي بن عبد الله بن العباس بن عَبْد المُطلّب بن هَاشم القُرشيّ(95 هـ : 714 / 158 هـ :775) هو الخليفة العشرون من خلفاء الرسول، والخليفة العباسي الثاني، وهُو المؤسس الحقيقي للدولة العباسيةِ، وباني بغداد، وقد بويع له بالخلافة في شهر ذي الحجة عام 136 هـ بعد وفاة أخيه أبي العباس عبد الله السفاح، وكان السفاح أصغر منه سنًا، ولكن تولى الخلافة قبله امتثالًا لوصية أخيهم إبراهيم الإمام، وكان السبب في هذا هو أن السفاح أمه عربية حرة، وكانت أم المنصور أَمة بربرية تُدعى سلامة. وُلِدَ المنصور في الحميمة من أرض الشراة من البلقاء الواقعة في الشام في جنوب الأردن تحديدًا في صفر في عام 95 هـ، ونشأ بها ثم ارتحل إلى الكوفة مع عائلته بعد أن ألقى مروان بن محمد القبض على أخيه إبراهيم الإمام، وقد ساعد أخاه أبا العباس السفاح في السيطرة

على الدولة الإسلامية، وفي تثبيت حكم بني العباس، وقد ولاه السفاح أرمينية وأذربيجان والجزيرة الفراتية، وأيضًا استعان به في إخماد الثورات التي قامت عليهم في بدايات الدولة العباسية، وقد عهد له السفاح بالخلافة من بعده، وبعد وفاة السفاح في أواخر عام 136 هـ أصبح المنصور هو الخليفة، وبويع له في البلاد في أول عام 137 هـ

٢- هارون الرشيد: يعتبر هارون الرشيد من أشهر الخلفاء العباسيين، وأكثرهم ذكرًا حتى في المصادر الأجنبية، والحوليات اليابانية والصينية التي ذكرته باسم (ألون)، أما المصادر العربية فقد أفاضت الكلام عنه لدرجة أن أخباره قد امتزجت فيها حقائق التاريخ بخيال القصص، ولا سيّما كتاب (ألف ليلة وليلة) التي صورته بالخليفة المسرف في الترف والملذات، وأنه لا يعرف إلا اللهو وشرب الخمور ومراقصة الغانيات. والواقع أن هذا الخليفة كان من خيرة الخلفاء فقد كان يحج عامًا ويغزو عامًا، وذكر أنه كان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن مات، ويتصدق بألف، وكان يحب

العلماء، ويعظم حرمات الدين، ويبغض الجدال والكلام، ويبكي على نفسه ولهوه وذنوبه، لا سيما إذا وعظ وقد تم فتح الكثير من البلدان في زمنه، واتسعت رقعة الإسلام واستتب الأمن وعم الرخاء وكثر الخير بما لا نظير له ثم إن هذا الخليفة كان حسن السيرة والسريرة

٣- المأمون: عبد الله بن هارون الرشيد سابع خلفاء بني العباس، شهد عهده ازدهارًا بالنهضة العلمية والفكرية في العصر العباسي الأول؛ وذلك لأنه شارك فيها بنفسه توفي والده هارون الرشيد في خراسان، وأخذت البيعة لابنه الأمين وفقًا لوصية والده التي نصت أيضًا أن يخلف المأمون أخاه الأمين، إلا أن الخليفة الجديد سريعًا ما خلع أخاه من ولاية العهد، وعين ابنه موسى الناطق بالحق وليًا للعهد، وكان المأمون آنذاك في خراسان، فلما علم بأن أخاه قد خلعه عن ولاية العهد أخذ البيعة من أهالي خراسان وتوجه بجيش لمحاربة أخيه، وقد استمرت الحروب بينهما أربع سنوات، إلى أن استطاع المأمون محاصرة بغداد والتغلب على الأمين وقتله عام 813 م، ظافرًا بالخلافة.

٤ -المعتصم بالله: إسحاق محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدي بن المنصور ثامن الخلفاء العباسيين، ولد سنة 179 هجري وتوفي بمدينة سامراء في 18 من ربيع الأول سنة 227 هجرية (4 من فبراير سنة 842 ميلادي)، وكان في عهد أخيه المأمون واليًا على الشام ومصر، وكان المأمون يميل إليه لشجاعته فولاّه عهده، وفي اليوم الذي توفي فيه المأمون بمدينة طرسوس بويع أبو إسحاق محمد بالخلافة ولقب بالمعتصم بالله، وبحسب المؤرخين فقد كان يملك قوة بدنية وشجاعة مميزة، غير أنه كان محدود الثقافة وضعيف في الكتابة، وما ميز عهد المعتصم هو استعانته بالجنود الأتراك وذلك للحد من المنافسة الشديدة بين العرب والفرس في الجيش والحكومة

٤- الواثق بالله: كانوا يسمونه المأمون الصغير لأدبه وفضله، وكان المأمون يجلسه وأبوه المعتصم واقف، وكان يقول: يا أبا إسحاق لا تؤدب هارون، فإني أرضي

أدبه، ولا تعترض عليه في شيء يفعله. كما عرف عنه اهتمامه بالآداب والأنساب والموسيقى.

٥- أحمد الناصر لدين الله: الناصر لدين الله واسمه أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن (553 هـ - 1158م 1225م) كان خليفة عباسيًا، حكم في بغداد بين عامي 1180و1225 م 577 هـ و 623 هـ. حاول إعادة الخلافة إلى دورها المهيمن السابق. مدد سيادته إلى بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس. كما كان أيضًا عالمًا، ومؤلفًا، وشاعرًا وراويًا للحديث.

#	لقب	الخليفة	فترة الخلافة	مُلاحظات
العصر العباسي الأول: شباب الدولة وصعودها (750م - 847م) / (132 هـ - 232 هـ) يشمل هذا العصر تسعة خلفاء أولهم السفاح وآخرهم الواثق، واستطاع العباسيون فيه تأكيد قوة خلافتهم، وهو العصر الذهبي للدولة.				
1	السفاح، أبو العباس، المرتضى، القائم.	عبد الله بن محمد	(132هـ - 136هـ) (750م - 754م)	ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ورَيْطة بنت عبيد الله الحارثي. حكم حتّى مماته. أطاح بالأمويين في معركة الزاب.
2	أبو جعفر المنصور.	عبد الله الثاني بن محمد	(137هـ - 158هـ) (754م - 775م)	ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب. حكم حتّى مات.

ابن أبو جعفر المنصور وأم موسى بنت منصور الحميرية. حكم حتّى مماته	(158هـ - 169هـ) (775م - 786م)	محمد بن عبدالله	أبو عبد الله، المهدي.	3
ابن محمد بن عبدالله 1. حكم حتّى مماته.	(169هـ - 170هـ) (786م - 787م	موسى بن محمد	أبو محمد، الهادي.	4
1. ابن محمد بن عبدالله وأمه ام ولد تسمى الخيزران بنت عطاء. 2. حكم حتّى مماته.	(170هـ - 193هـ) (787م - 809م)	هارون بن محمد	الرشيد، أبو موسى، أبو جعفر.	5
1. ابن هارون الرشيد و زبيدة بنت جعفر. 2. حكم حتّى مماته.	(193هـ - 198هـ) (809م - 814م)	محمد بن هارون	الأمين، أبو عبد الله.	6
1. ابن هارون الرشيد وأمه أم ولد تدعى مراجل .	(198هـ - 218هـ) (814م - 833م)	عبد الله بن هارون	المأمون، أبو العباس.	7

2. حكم حتّى مماته.					
1. ابن هارون الرشيد وأمه أم ولد 2. تدعى ماردة. حكم حتّى مماته.	(218هـ - 227هـ) (833م - 842م)	محمد بن هارون الرشيد	المعتصم ، أبو إسحاق.	8
1. ابن المعتصم بالله وأم ولد تدعى قراطيس. 2. حكم حتّى مماته.	(227هـ - 232هـ) (842م - 847م)	هارون بن محمد	الواثق بالله، أبو جعفر.	9
العصر العباسي الثاني: عصر الحرس التركي)847م - 1055م) / (232 هـ - 446 هـ(يشمل هذا العصر 16 خليفة أولهم جعفر المتوكل وآخرهم أحمد القادر بالله، من عام 847م حتى 1055م. وهذا العصر هو عصر الضعف والانحطاط. وأبرز أوجه عصور الانحطاط، سوى استقلال الولاة والسلاطين في شؤون ولايتهم بل وتأسيسهم دول مستقلة تمامًا في بعضها، كان تدخل الجيش في تعيين الخلفاء.					
1. ابن محمد بن هارون الرشيد وأمه ام ولد تدعى شجاع.	(232هـ - 247هـ) (847م - 862م)	جعفر بن محمد المعتصم	المتوكل على الله، أبو الفضل.	10

2. قتله الترك ا بنه المنتصر ليخلفه في الحكم.					
1. ابن المتوكل على الله وأم ولد تدعى حبشية. 2. حكم حتّى مماته.	(247هـ - 248هـ) (862م - 862م)	محمد بن جعفر	المنتصر بالله، أبو جعفر.	11
1. ابن محمد بن المعتصم بالله وأم ولد اسمها مخارق 2. خلع نفسه في 4 محرم 252 هـ.	(248هـ - 252هـ) (862م - 866م)	أحمد المستعين بالله	المستعين بالله، أبو العباس.	12
1. ابن المتوكل على الله وقبيحة. 2. خلعه الأتراك وأجبروه على التنازل عن الخلافة.	(252هـ - 255هـ) (866م - 869م)	المعتز بالله	المعتز بالله، أبو عبد الله.	13
1. ابن هارون الواثق ووردة. 2. قُتل في منتصف	(255هـ - 256هـ) (869م - 870م)	محمد بن هارون الواثق	أبو إسحاق، المهتدي بالله.	14

	رجب عام 256هـ.				
1. 2.	ابن جعفر المتوكل وفتيان. حكم حتى مماته.	(256هـ - 279هـ) (870م - 892م)	أحمد بن جعفر المتوكل	أبو العباس، المعتمد على الله.	15
1. 2.	ابن طلحة الموفق و ضرار. حكم حتى مماته.	(279هـ - 289هـ) (892م - 902م)	أحمد بن طلحة بن جعفر المتوكل	المعتضد بالله، السفاح الثاني، أبو العباس.	16
1. 2.	ابن أحمد المعتضد وجيجك. حكم حتى مماته.	(289هـ - 295هـ) (902م - 908م)	علي بن أحمد المعتضد	أبو أحمد، المكتفي بالله.	17
1. 2. 3.	ابن أحمد المعتضد و شغب. قُتل عام 320هـ. خلفه عبد الله بن المعتز بالله الذي ولي الخلافة يوماً واحداً فقط.	(295هـ - 317هـ) (908م - 932م)	جعفر بن أحمد المعتضد	المقتدر بالله، أبو الفضل.	18

19	أبو منصور، القاهر بالله.	محمد بن أحمد المعتضد	(320هـ - 322هـ) (932م - 934م)	1. ابن أحمد المعتضد بالله وفتنة. 2. حبسه الجند من 322 حتى 333 بعد ان امتنع عن خلع نفسه، مات عام 339.
18 (2)	المقتدر بالله، أبو الفضل.	جعفر بن أحمد المعتضد	(317هـ - 320هـ) (908م - 932م)	1. أعيد للخلافة ثم خُلع.
19 (2)	أبو منصور، القاهر بالله.	محمد بن أحمد المعتضد	(320هـ - 322هـ) (932م - 934م)	1. ابن أحمد المعتضد بالله وفتنة. 2. حبسه الجند من 322 حتى 333 بعد ان امتنع عن خلع نفسه، مات عام 339.
20	الراضي بالله، أبو العباس.	محمد بن جعفر المقتدر	(322هـ - 329هـ) (934م - 940م)	1. ابن جعفر المقتدر وظلوم.

2. حكم حتى مماته.					
1. ابن جعفر المقتدر وخلوب. 2. خُلع بعد أن سملت عيناه، ثم سجن 25 سنة حتى وفاته عام 357هـ.	(329هـ - 333هـ) (940م - 944م)	إبراهيم بن جعفر المقتدر	المتقي لله، أبو إسحاق.	21
1. ابن علي المكتفي وأم ولد تدعى أملح الناس. 2. خلعه أحمد بن بويه «معز الدولة»، بعد ان سملت عيناه، ثم سجن إلى أن مات سنة 338هـ.	(333هـ - 334هـ) (944 - 946م)	عبد الله بن علي المكتفي	المستكفي بالله، أبو القاسم	22
1. ابن جعفر المقتدر وشغلة. 2. أصيب بفالج بلسانه عام 363 فخلع	(334هـ - 363هـ) (946م - 974م)	الفضل بن جعفر المقتدر	المطيع لله، أبو القاسم.	23

	نفسه ثم توفي عام 364هـ.				
24	الطائع لله، أبو بكر.	عبد الكريم بن الفضل المطيع	(363هـ - 381هـ) (974م - 991م)	1. ابن الفضل المطيع لله وأمه أم ولد تدعى هزار أو عتب. 2. كتب بهاء الدولة البويهي على الخليفة كتابًا يخلع فيه نفسه عام 381هـ، وبقي عند الخليفة الجديد حتى توفي ليلة عيد الفطر عام 393هـ.	
25	القادر بالله، أبو العباس.	أحمد بن إسحاق بن المقتدر	(381هـ - 422هـ) (991م - 1031م)	1. ابن إسحق بن المقتدر بالله وأمه أم ولد اسمها تمني. 2. حكم حتى مماته.	

العصر العباسي الثالث: عصر آل سلجوق

(1055م - 1258م) / (446 هـ - 656 هـ)

بدأ هذا العصر بعد أن استطاع السلاجقة تحت زعامة طغرل بك السيطرة التدريجية على أملاك الدولة الغزنوية ثم الدخول إلى بغداد بناءً على طلب الخليفة، الذي عين طغرل بك سلطانًا وخطب باسمه. وانتهى عند سقوط بغداد (1258).

1. 2.	ابن أحمد القادر بالله وبدر الدجى أو قطر الندى. حكم حتى مماته 45 سنة.	(422هـ - 467هـ) (1031م - 1075م)	عبد الله بن أحمد القادر	القائم بأمر الله، أبو جعفر.	26
1. 2.	ابن عبد الله القائم بأمر الله وأرجوان. حكم حتى مماته.	(467هـ - 487هـ) (1075م - 1094م)	عبد الله بن محمد بن عبد الله القائم	المقتدي بأمر الله، أبو القاسم.	27
1. 2.	ابن عبد الله المقتدي بالله. حكم حتى مماته.	(487هـ - 512هـ) (1094م - 1118م)	أحمد بن عبد الله المقتدي	المستظهر بالله، أبو العباس.	28

29	المستر شد بالله، أبو منصور.	الفضل بن أحمد المستظهر	(512هـ - 529هـ) (1118م - 1135م)	1. ابن أحمد المستظهر بالله وأم ولد. 2. قُتل عام 529هـ وعمرة 45 سنة.
30	الراشد بالله، أبو جعفر.	منصور بن الفضل المسترشد	(529هـ - 530هـ) (1135م - 1136م)	1. ابن الفضل المسترشد بالله. 2. خُلع وهو لم يكمل السنة وقُتل في أصبهان سنة 532هـ.
31	المقتفي لأمر الله، أبو عبد الله.	محمد بن أحمد المستظهر	(530هـ - 555هـ) (1136م - 1160م)	1. ابن أحمد المستظهر بالله وأمه حبشية. 2. حكم حتى مماته وعمره 66 سنة.
32	المستنجد بالله، أبو المظفر.	يوسف بن محمد المقتفي	(555هـ - 566هـ) (1160م - 1170م)	1. ابن محمد المقتفي لأمر الله وطاووس. 2. حكم حتى مماته سنة 566هـ.

33	المستضيء بأمر الله، أبو محمد.	الحسن بن يوسف المستنجد	(566هـ - 575هـ) (1170م - 1180م)	1. ابن يوسف المستنجد بالله و«غضة». 2. انتهت الدولة العبيدية في عهده عام 567هـ. 3. حكم حتى مماته.
34	الناصر لدين الله، أبو العباس.	أحمد بن الحسن المستضيء بأمر الله	(575هـ - 622هـ) (1180م - 1225م)	1. ابن الحسن المستضيء بأمر الله وزمرد خاتون. 2. ظهر الأيوبيون في عهده وفتح صلاح الدين الأيوبي القدس عام 583. 3. حكم حتى مماته وكانت مدة خلافته 47 سنة.
35	الظاهر بأمر الله، أبو نصر.	محمد بن أحمد الناصر لدين الله	(622هـ - 623هـ)	1. ابن أحمد الناصر لدين الله.

2. حكم حتى مماته وكانت خلافته تسعة أشهر.	(1225م - 1226م)				
1. ابن محمد الظاهر بأمر الله وجارية تركية. 2. حكم حتى مماته 10 جمادى الآخرة 640هـ.	(623هـ - 640هـ) (1226م - 1242م)	منصور بن محمد الظاهر بأمر الله	المستنصر بالله، أبو جعفر.	36
1. ابن منصور المستنصر بالله و هاجر. 2. دخل التتار عاصمة الخلافة بغداد بعد خيانة وزيرة ابن العلقمي. 3. قُتل المستعصم رفسًا على يد التتار 24 صفر	(640هـ - 656هـ) (1242م - 1258م)	عبد الله بن منصور المستنصر بالله	المستعصم بالله، أبو أحمد.	37

الدولة العباسية

تنسب إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي -صلى الله عليه وسلم- وقد اعتمد العباسيون في تأسيس دولتهم على الفرس الناقمين على الأمويين لاستبعادهم إياهم من مناصب الدولة والمراكز الكبرى، واحتفاظ العرب بها، كذلك استمال العباسيون الشيعة للمساعدة على زعزعة كيان الدولة الأموية. نقل العباسيون عاصمة الدولة، بعد نجاح ثورتهم، من دمشق، إلى الكوفة، ثم الأنبار قبل أن يقوموا بتشييد مدينة بغداد لتكون عاصمة لهم، والتي ازدهرت طيلة ثلاث قرون من الزمن، وأصبحت أكبر مدن العالم وأجملها، وحاضرة العلوم والفنون، لكن نجمها أخذ بالأفول مع بداية غروب شمس الدولة العباسية ككل، ونقل المعتصم عاصمة الدولة من بغداد إلى سامراء التي أطلق عليها سر من رأى ثم أعيدت إلى بغداد بعد أربعين سنة. عرفت الدولة العباسية عصرها الذهبي خلال عهدي هارون الرشيد وابنه المأمون، إذ نشطت الحركة العلمية وازدهرت ترجمة كتب العلوم الإغريقية والهندية والفهلوية إلى اللغة العربية على يد السريان والفرس والروم من أهالي الدولة العباسية، وعمل المسلمون على تطوير تلك العلوم وابتكروا عدة اختراعات مفيدة، كما ازدهرت الفلسفة الإسلامية واكتمل تدوين المذاهب الفقهية الكبرى؛ الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية عند أهل السنة، والجعفرية والزيدية عند الشيعة، وبرزت الكثير من الأعمال الأدبية والفنية مثل كتاب ألف ليلة وليلة وغيرها، وساهم أهل الكتاب من

المسيحيين واليهود والصابئة بهذه النهضة الحضارية، وبرز منهم علماء وأدباء وفلاسفة كبار.

انتهى الحكم العباسي في بغداد سنة 1258م عندما أقدم هولاكو خان على نهب وحرق المدينة وقتل أغلب سكانها بما فيهم الخليفة وأبنائه. انتقل من بقي على قيد الحياة من بني العباس إلى القاهرة بعد تدمير بغداد، حيث أقاموا الخلافة مجددًا في سنة 1261م، وبحلول هذا الوقت كان الخليفة قد أصبح مجرد رمزٍ لوحدة الدولة الإسلامية دينيًا.

الدول :

- الدولة البويهية: ينحدر بنو بويه من أعالي جبال الديلم ويرجعون في نسبهم إلى ملوك الساسانية. استمدوا اسمهم من أبو شجاع بويه، والذي لمع اسمه أثناء عهد الدولتين السامانية ثم الزيارية. استطاع ثلاثة من أبنائه الاستيلاء على السلطة في العراق وفارس. خلع عليهم الخليفة العباسي ألقاب السلطنة

- الدولة السلجوقية: الدولة السلجوقيَّة أو دولة بني سلجوق أو دولة السَّلاجقة العظام (يُطلَق عليها الاسم الأخير لتمييزها عن دول السَّلاجقة اللاَّحقة التي ظهرت بعد تفكِّكها وانهيارها) هي واحدة من الدول الكبرى في تاريخ الإسلام وإقليم وسط آسيا، لعبت دورًا كبيرًا في تاريخ الدولة العباسية والحروب الصليبية والصِّراع الإسلامي البيزنطي. تأسَّست الدولة على يد سلالة السَّلاجقة، وهي سلالة تركيَّة تنحدر من قبيلة قنق التي تنتمي بدورها إلى مجموعة أتراك الأوغوز حكمت الدولة السلجوقيَّة في أوج ازدهارها كافَّة إيران وأفغانستان ووسط آسيا وُصولًا إلى كاشغر في الشرق، فضلًا عن العراق والشام والأناضول غربًا وُصولًا إلى مشارف القسطنطينية. قامت الدولة منذ عام 1037م (429 هـ) عندما دخل مؤسِّسها طغرل بك مدينة مرو في وسط آسيا، وحتى

عام 1157م (552 هـ) عند مقتل السلطان أحمد سنجر، الذي تفكَّكت الدولة بعده إلى ولايات منفصلةٍ حكمت أجزاءً مختلفة من وسط وغربي آسيا.

● الدولة الخوارزمية: كان مؤسس السلالة أنوشطغين-1077) 1097) من مماليك السلاطين الغزنويين. علا شأنه أثناء خدمته مع السلاجقة، ثم عينه هؤلاء واليًا على خوارزم. في عهد قطب الدين محمد1128-1097)) ثم علاء الدين أتسز (1128-1156) تمتعت الدولة باستقلالية كبيرة. بدأ الخوارزميون بالتوسع في خراسان، ثم دخلوا في صراع منذ عام 1157 مع السلاجقة. ضم إل أرسلان1172-1156)) إليه كل المناطق الشرقية من دولة السلاجقة. استطاع علاء الدين تكش1200-1172)) أن يخلف السلاجقة في بلاد فارس عند استيلاءه على خراسان عام 1187، ثم توسعه حتى إقليم الري عام 1192. أصبح بعدها حامي الخلافة العباسية الجديد. وأصبحت قائمة حتى احتاجها المغول بقيادة جينكيز خان.

أهم المدن

● مدينة مرو: مرو أو كما تعرف قديمًا بمرو الكبرى أو مرو الشاهجان تمييزًا لها عن مرو الروذ وهي الآن عاصمة منطقة ماري في تركمانستان -وماري تحريف لمرو - ويقدر عدد سكانها 123,000 نسمة، تقع مدينة مرو على ضفاف نهر المرغاب تعد المدينة حاليا وفقا لليونسكو من مواقع التراث العالمي ويقال إنها كانت أكبر مدن العالم في القرن الثاني عشر الميلادي.

● مدينة سمرقند: هي مدينة في أوزبكستان يبلغ عدد سكانها 400,000 نسمة وهي ثاني أكبر مدن أوزباكستان وهي العاصمة الثانية الدولة الخوارزمية.

● مدينة همذان: هَمِدان أو همذان (من كلمة "هگمتانه") هي مدينة إيرانية وعاصمة محافظة همدان، وتعرف أيضا باسم (أكبتانا) كما وردت في كتاب (هيروديت أبو التاريخ) وهي مدينة بناها الملك ديوسيس لتعزيز حكمه على الميديين وتوحيد صفوفهم. ويذكر أنها كانت ذات أسوار منيعة، كانت تسمى آقباتان أي فرش بيضاء أو مطلي بالبياض باللغة الأذرية وكانت

عاصمةً لدولة الميدية في العهد الميدي، فيها قبرُ العالم الطبيب ابن سينا وأيضا الشاعر بابا طاهر الهمداني المشهور بالعريان. يقدر عدد سكانها بمليون و700 ألف نسمة يتكلمون لهجة إيرانية مزيجةً من الكردية اللكية واللهجة المحلية الملايرية. سكان همدان القدماء كانوا من الكرد الجورقان والبرزيكان أما اليوم تقطن المدينة مزيج من الكرد (أكثرهم من قبائل اللر واللك والزنكنة) والفرس مع الترك الآذر.

المصادر

- تاريخ الدولة العباسية العصر العباسي الأول د حمدي عبد المنعم.

- تاريخ الدولة العباسية من قيام الخلافة حتى سقوطها د. محمد سهيل طقوش.

- تاريخ السلاجقة في العراق والشام وآسيا الصغرى

د محمد سهيل طقوش.

- تاريخ الحروب الصليبية د محمد مرسي الشيخ.

- تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام د محمد سهيل طقوش.

عن الكاتب:

عبد الفتاح صابر عبد الفتاح 1992م

حاصل على ليسانس الأداب قسم التاريخ دفعة 2013م ويعم في مجال التدريس كمعلم لمادة الدراسات الاجتماعية بالمعاهد الخاصة.

عاشق للقراءة ويهوى كتابة الشعر والرواية وتعتبر رواية بغداد البداية والنهاية عمله المنشور الأول.

للتواصل مع الكاتب:

ايميل: mrabdelftahsaber@gmail.com

الواتساب:01550341084